الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

- جامعة عمار ثليجي الأغواط -

كلية العلوم الانسانية والعلوم الاسلامية والحضارة

- قسم التاريخ -

دور أهل الذمة في مصر والشام خلال العصر المملوكي

(648هـ-923هـ/1250م-1517م)

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في التاريخ الوسيط

إعداد الطالبة:

- قناشي إيمان.

بإشراف الدكتور:

- معمر جعيرن.

2022-2021 / 1443-1442

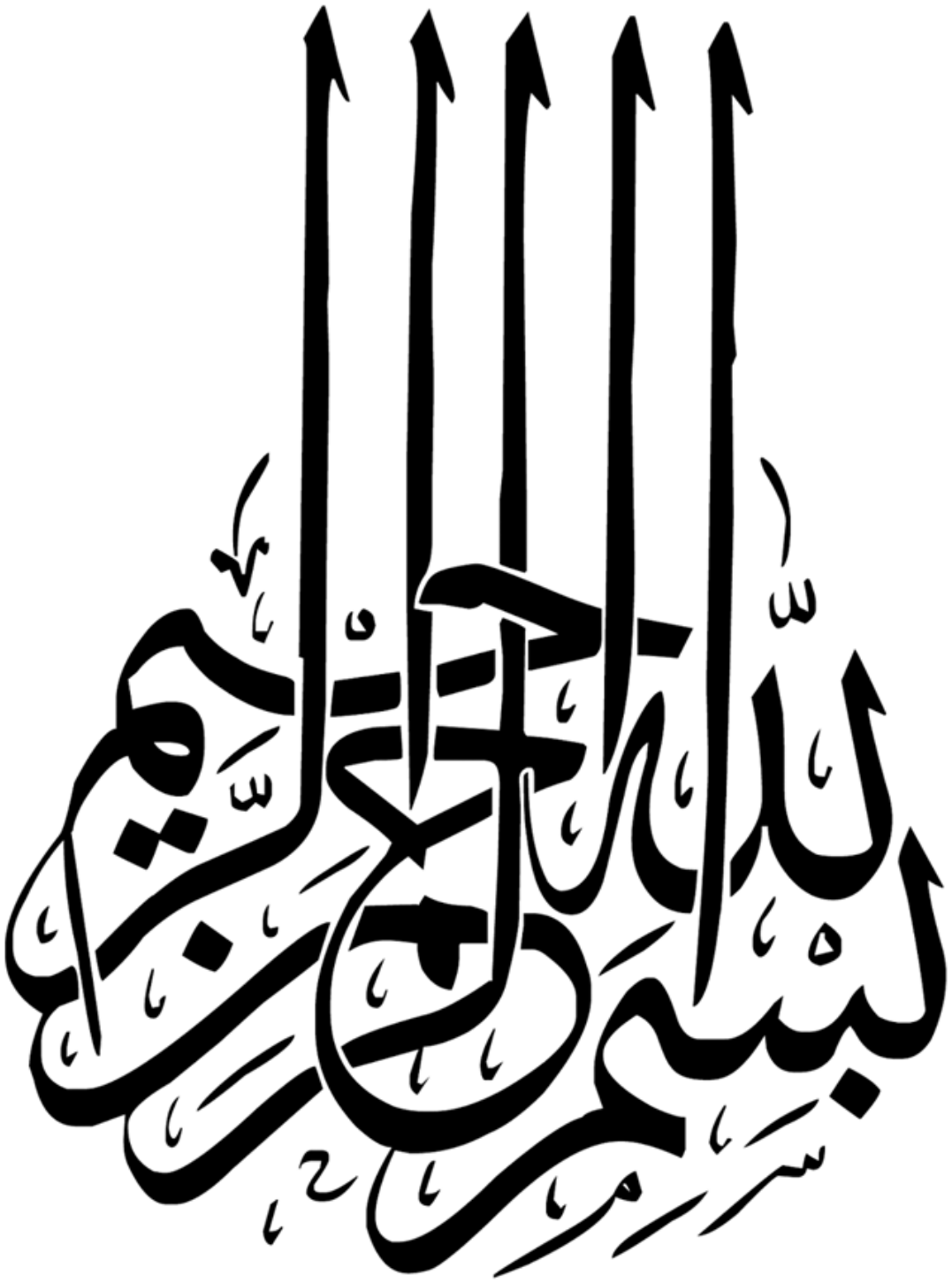
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى أصل البدايات وأصل النهايات

إلى الذين من أجلهم تهون الحياة

إلى الذين من أجلهم تستحق الحياة

إلى من سكن حبهم في القلب فكانوا الهواء والنبض

إلى أمي و أبي وإخوتي أمين وعبد القادروعبد الحميد وأختي فاطمة

وإلى من كانتا دومًا معي في رحلتي العلمية هذه زهرة واكرام أحلى

صديقاتي ورفيقاتي.

إليهم جميعا أهدي هذا الجهد المتواضع.

شُكر

الشكر أولا لله العلي القدير الذي أنعم علي بنعمة العقل والدين القائل في محكم التنزيل:

وفاءً وتقديرًا واعترافًا مني بالجميل أتقدم بجزيل شكري للأستاذ معمر جعيرن صاحب الفضل في توجيهي ومساعدتي فجزاه الله خيرًا.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى أساتذتي الذين تفضلوا بمناقشة هذا البحث، وأشكر كل من قدم لي يد المساعدة في اكمال هذا البحث ولو بكلمة.

قائمة المختصرات

الرمز	المعنى
تح	تحقيق
تر	ترجمة
ج	الجزء
د–ت	دون تاريخ
د–ب	دون بلد
ص	صفحة
م	الميلادي
هـ	الهجري

مقدمة

بات موضوع أهل الذمة والحكم الاسلامي محور بحث ودراسة بين الباحثين في التاريخ وذلك لكونه موضوع ذا أهمية بالغة وهناك موضوعات في الغالب تدور في محتواها حول موقف الاسلام من أهل الذمة عبر العصور بصورة عامة بينما نجد دراسات منخفظة تناولت أوضاع وأحوال أهل الذمة في منطقة معينة وفي فترة زمنية محددة كأحوال أهل الذمة في العصر الفاطمي والأيوبي والمملوكي.

تعد دراسة موضوع "دور أهل الذمة في مصر والشام خلال العصر المملوكي (648هـ-923هـ/1250م-1517م) من أهم الدراسات الشيقة والمحمسة للبحث فيها، كما أن أهل الذمة في العالم الاسلامي يعدون من الطوائف الدخيلة عليه فهو من المحاور القابلة للجدل والنقاش.

لقد وقع اختياري على هذا الموضوع لأن الدراسات كانت منخفظة ونادرة وأن الفترة الزمنية المراد دراستها (العصر المملوكي) كانت موازية للحروب الصليبية من الغرب وتهديد القوات التتارية من الشرق، أي دولة المماليك نشأت في أجواء متذبذبة بقدوم الخراب والدمار والاضطرابات، وهناك تكون العلاقات بين أهل الذمة والمسلمين أكثر وضوحا وبروزا تحت ظل تلك الظروف، اذ كان اهتمام الكتاب والمؤرخين الأجانب من غربيين ومستشرقين في التأليف عن احوال أهل الذمة في الاسلام خلال أوقات الاضطرابات والحروب واقتصرت دراساتهم على المعاناة والمضايقات التي تعرضو لها في ظل الدولة الاسلامية وفي حين تجاهلوا الجانب الايجابي لهم من النعم التي نعموا بها من تسامح ديني وحسن الجوار في جميع العصور الاسلامية وبما أن هذه الدراسة تعتبر دراسة جديدة فما كان علي سوى أن أتعامل معها وأبحث فيها.

ولفهم الموضوع لا بدل لنا أن نطرح الاشكالية التالية: إلى أي مدى تكمن أهمية ودور أهل الذمة في مصر والشام خلال العصر المملوكي؟ والتي يمكن من خلالها عرض المحتوى عن طريق تساؤلات فرعيه وهي كالتالي:

- من هم أهل الذمة وما هي أهم طوائفهم؟
- كيف وصل أهل الذمة إلى السلطة ؟
- ما هي أهم الامتيازات والوظائف الادارية التي منحت لهم من طرف السلاطين؟
- كيف كانت علاقاتهم الخارجية؟
- ما هي أهم النشاطات التي مارسوها في الجانب الاقتصادي؟
- فيما تمثلت الجوانب الاجتماعية التي اثرت على المجتمع الاسلامي في مصر والشام وهل كانت لأهل الذمة بصمة في الجانب العلمي والثقافي أم لم تكن؟

وجدير بالذكر أن ثمة دراسات سبقت هذه الدراسة ولو كانت قليلة نهضت بدراسة أهل الذمة في الاسلام تعرضت للحديث عن دور أهل الذمة في مصر والشام خلال العصر المملوكي ومن بين هذه الدراسات نجد كتاب أهل الذمة في مصر الاسلامية من الفتح الاسلامي حتى نهاية المماليك للمؤلف قاسم عبده قاسم والذي ساعدني في استخلاص بعض الأحوال الاجتماعية لأهل الذمة وأعمالهم التخريبية وبعض الامتيازات التي استنتجتها منه وكما نجد كتاب اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجنيزة والذي ألفه محمد الوقاد والذي أفادني في معرفة الوظائف الادارية التي منحها السلاطين لأهل الذمة وقد أمدني ببعض المعلومات عن الجانب الاجتماعي لهم وحتى العلمي رسائل الماجستير التي اعتمدت عليها لإثراء هذه الدراسة نذكر منها رسالة ماجستير بعنوان صورة المجتمع الشامي لسميرة دياب ورسالة ماجستير أخرى بعنوان دور أهل الذمة في بلاد الشام خلال العصرين الأيوبي والملوكي لفايزة حجازي، فقد أخذت في استخلاص المادة العلمية وقمت بتحليلها وتصنيفها وترتيب فصول الدراسة.

قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة وفصل تمهيدي وثلاثة فصول وخاتمة.

الفصل التمهيدي: خصصته لأصل التسمية ولمحة تاريخية تحدثت فيها عن أصل لفظة الذمة في اللغة والاصطلاح ثم عن الطوائف أهل الذمة وذكرت مقتطفات عن أوضاعهم قبل العهد المملوكي من الفتح الاسلامي ثم العصر الأموي ثم العباسي ثم العصر الفاطمي إلى غاية الدولة الأيوبية.

الفصل الأول: تناولت فيه الدور السياسي والدبلوماسي لأهل الذمة في الدولة فتحدثت عن أهم الوظائف الادارية التي تقلدوها وكذلك ذكرت بعض الامتيازات التي منحت لهم ثم عن الغرامات والالتزامات المالية كالجوالي والضرائب الأخرى المفروضة عليهم، بينما تطرقت إلى العلاقات الخارجية لهم من خلال مراسلات الملوك والسلاطين كملوك أوروبا والحبشة وبيزنطة والمغول والصليبيين.

الفصل الثاني: خصصته للجانب الاقتصادي والذي تضمن اسهامات أهل الذمة في مجال كل من الزراعة الصناعة والتجارة ومدى اهتمام اليهود والنصارى بهذا المجال.

الفصل الثالث: وهو الفصل الأخير الذي تحدثت فيه عن تأثير أهل الذمة على الجانب الاجتماعي والعلمي والثقافي، والذي أشرت فيه في شكل نقاط على أهم المظاهر الدالة على تأثر المسلمين في مصر وبلاد الشام بهم كالأعياد والمناسبات الاحتفالية وبعض الأعمال التخريبية لهم كالحرائق وغيرها من المظاهر، وتطرقت إلى الجانب العلمي الذي ذكرت فيه بعض المؤسسات العلمية التي شيدها

الذميون في أواسط الدولة المملوكية ثم حركة الترجمة ودور المفكرين والمؤلفين منهم في تطوير مؤلفاتهم وإضافة إلى هذا تحدثت عن الطب والأطباء ودورهم في بلاط الدولة ومدى احتكاكهم بالسلاطين.

واختتمت هذه الدراسة بخاتمة والتي هي عبارة عن استنتاجات لما جاء في هذا البحث .

اعتمدت على المنهج الوصفي الذي يتخلله بعض المقارنة الذي خدم موضوعي هذا من خلال وصف الأحداث التاريخية من أحوال أهل الذمة وحياتهم وأهم أعمالهم وفي حين منهج المقارنة استعملته في بعض النقاط كمقارنة اليهود بالنصارى من عدة نواحي كناحية غنى اليهود أكثر من النصارى وغيرها.

لقد اعتمدت على مجموعة من المصادر التاريخية الاولية لهذا البحث التي عاصر مؤلفيها تلك الفترة فقاموا بسرد بعض المعلومات والحقائق الهامة والصحيحة خاصة بالعصر المملوكي، وفي حين نجد بعض المصادر التي ألفها أصحابها وجاءت متأخرة نسبيًا لكنها لا تقل أهمية عن تلك المصادر المعاصرة والوثائق الرسمية المتصلة اتصالًا وثيقًا بموضوع البحث ومن أهمها نذكر:

- صبح الأعشى في صناعة الانشاء للقلقشندي وهو المكنى بأبو العباس توفي (821هـ/1418م) الذي يعد من أهم أدمغة التاريخ الاسلامي وباعتباره واكب العصر المملوكي فهو من المصادر الأولية لهذا البحث، اعتمدت عليه من خلال تعرضه لأحوال أهل الذمة وأصنافهم وتحدثته عن الجزية الخاصة بهم وعن بعض الوظائف الادارية التي تقلدوها.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي توفي (854هـ/1450م) وهو من كبار مؤرخي التاريخ اهتم بتاريخ مصر والقاهرة، فتحدث عن أسواقها وحاراتها وكنائسها وديرها وغيرها من المواضيع التي تناولها، فقد أمدني بمعلومات وفيرة تخص معاملات أهل الذمة في الأسواق خاصة.
- اضافة إلى تلك المصادر نذكر بعض المراجع التي اعتمدت عليها وهي كثيرة أهمها:

– القدس في العصر المملوكي، لعلي السيد علي والذي ساعدني في مجال الزراعة وذكر أنواع الأشجار والبساتين الخاصة بهم، وكذلك الجانب العلمي وخاصة فيما تعلق بالمنشآت العلمية لهم.

– مصر الاسلامية وأهل الذمة، لإسماعيل كاشف والذي أفادني في معرفة الاعمال التخريبية لأهل الذمة كالحرائق التي أثاروها.

– اليهود في مصر، لقاسم عبده والذي أمدني بمعلومات وفيرة حول حياة اليهود في مصر ومدى تأثيرهم على المجتمع الاسلامي.

– تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي، لمحمد النقر والذي استفدت منه في اثراء هذه الدراسة في مجال الضرائب الاضافية خاصة.

من المعلوم ان اي بحث لا يخلو من النقائص وذلك لوجود جملة من الصعوبات التي تعترض أي باحث فهناك بعض الصعوبات وقفت كحاجز أمامي وهي:

1- افتقار في المادة العلمية ولاسيما الجانب الاقتصادي الذي أهمله المؤرخون فقد تحدثوا عن الجانب الاجتماعي والسياسي والعلمي وتجاهلوه.

2- صعوبة الحصول على بعض المصادر والكتب التي تناولت الموضوع.

3- المسافة والبعد عن المكتبات التي تحمل أمهات الكتب كمكتبة الجامعة وذلك يعود لظروف شخصية.

الفصل التمهيدي

أصل التسمية ولمحة تاريخية

الفصل التمهيدي

أصل التسمية ولمحة تاريخية

المبحث الأول: تعريف أهل الذمة.

1- لغة.
2- اصطلاحًا.

المبحث الثاني: طوائف أهل الذمة.

1- طائفة اليهود.
2- طائفة النصارى.

المبحث الثالث: لمحة تاريخية عن أهل الذمة قبل عهد المماليك.

1- عهد عمر ابن الخطاب والعهد الأموي.
2- العهد العباسي والدولة الطولونية.
3- الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية.

لقد عرفت العصور الوسطى بطوائف وعقائد دينية مختلفة، التي كانت الى جانب الدين الاسلامي والذي يقر بنبوة مُحَّد عليه الصلاة والسلام والإيمان بالكتب السماوية، فطائفة اليهود وطائفة المسيحية التي يطلق عليها اسم طائفة النصارى وقد كونت كل من الطائفتين حزمة وانتشرت في اوساط البلاد الاسلامية وحتى العالم، وأطلق الاسلام عليهم اسم أهل الذمة.

المبحث الأول: تعريف أهل الذمة:

1- أهل الذمة لغة:

الدم هو عكس المدح عرفه ابن منظور في كتابه هكذا ذم يذم ذمًا والذم هو نقيض المدح، ذَمُه ومذمه مذموم وذَمُ وأذّمه مذموم أي وجده ذميمًا مذمومًا وأذم بهم: "تركهم مذمومين في الناس"[1] .

وكما عرف الفيروز ابادي الذمه في اللغه وهو يقول: الذمه جاءت من دم يذم دما فهو مذموم ودمه بمعنى وجده ذميما وأذم بهم اي تهاون او تركهم مذمومين في الناس، تذاموا بمعنى ذم بعضهم بعضا، وقضى مذمته بكسر الذل وفتحها أحسن اليه لئلا يدم واستذم اليه فعل ما يذمه على فعل ما يذمه[2].

والذم جاء بمعنى الاساءة واللوم ومنه التذمم، والذم المذموم والذميم ونقول أذم الرجل اي ما يذم علي وفي حديث عن يونس عليه السلام ان الحوت بقاؤه زريًّا ذمًا وفي ته زريا اي مذموما بمعنى شبه هالك[3].وجاء لفظ الذمه في القران الكريم في قوله تعالى:

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾[4]

والذّمام: هو كل حرمة تلزمك إذا ضيعتها المذمّة، أي الحق والحرمة الذي يذم مضيعها ومن ذلك يسمى أهل الذمة، ورجل ذمي معناه رجل له عهد يأمن بهعلى ماله وعرضه ودينه ويسمى العهد ذمامًا لأن الانسان يذم على اضاعته منه. [5]

1 ابن منظور، (711هـ/1311م)، لسان العرب، ط1، دار المعارف، (د. ب)، (د. ت) ص 1516.

2 الفيروز أبادي، (817هـ/1415م)، قاموس المحيط، ج4، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1400هـ/1980م، ص 114.

3 زياد مُحَّد غانم، المعجم الجامع، التاء والذال، مذكره لنيل شهاده ماجستير كلية الأدب، جامعة النجاح، نابلس 2001، ص 467.

4 سورة التوبة، الآية 10.

5 ابن فارس، معجم مقايس اللغة، تح، عبد السلام هارون، دار الفكر، دمشق، 1979، ص346.

2- أهل الذمة اصطلاحًا:

أهل الذمة في الاصطلاح هو اسم يطلق على من يجوز عقد الذمة معهم وهم من أهل الكتاب (يهود ونصارى) كما اعتبر المؤرخون المجوس من الذمين، بشرط أن تكون عقيدتهم موافقة لعقيدة النصارى واليهود وتؤخذ منهم الجزية إلى جانبهم[1] .

وفي تعريف آخر لأهل الذمة نجد أن مصطلح الذمة في الحضارة الاسلامية أطلق على طائفتي اليهود والنصارى "وهم الذين تعاهدوا مع رسول الله ﷺ منذ القدم وتوالت معاهداتهم مع الحكام والخلفاء والسلاطين في كيان الدولة الاسلامية ككل، ويتفق العلماء والفقهاء أن من تؤخذ منهم الجزية هم من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى[2] .

وجاءت الذمة بمصطلحات أو تسميات عديدة نذكر منها:

-العهد: وفي قوله تعالى:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[3]

- **الضمان:** الضمان من الضمن فذمّة الضمان في ضمن ذّمة المضمون به[4] .
- **الكفالة:** وهو من أعطى عهدًا يأمن به على ماله وعرضه مقابل دفع الجزية المفروضة عليه[5] .

حدد الاسلام موقفه تجاه أهل الذمة وذلك من خلال قوله تعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[6]

وفي آية أخرى قال تعالى:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[7].

---

1 قاسم عبد قاسم، أهل الذمة في مصر من الفتح الاسلامي حتى نهاية المماليك، عين الدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية (د.ب)، (د.ت) ص 21.

2 اسماعيل كاشف، مصر الاسلامية وأهل الذمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ب)، 1993 ص 9.

3 سورة النحل، الآية91.

4 منصور البهوقي، كشاف القناع عن متن الأقناع، تح، محمّد أمين الضاوي، ج3، ط1، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1417هـ/1997م ص 78.

5 فايزة حجازي، أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي،مذكرة لنيل شهادة الماجستير،تاريخ وحضارة اسلامية جامعة اليرموك، 1987م، ص23.

6 سورة البقرة، الآية 265.

7 سورة التوبة، الآية 29.

أما بخصوص الجزية فقد ذكر ابن القيم الجوزية أن أهل الذمة في الاسلام تؤخذ منهم الجزية من طبقات ثلاث هن الغني المتوسط والفقير[1] .

وقد ذكر القلقشندي أن الجزية تسقط على النصراني أو اليهودي في حال إسلامه ولا تجب على غير قادر على القتال كالشيوخ مثلًا وكذلك المجنون والمرأة أو حتى الخنثى[2] ، وكما كانت تدفع كل مرة على حساب الظروف الاقتصادية للبلاد[3].

فرضت الجزية على أهل الذمة في دار الاسلام لأسباب منها:

- أن الذمي معفى من الخدمة العسكرية وله حماية داخل البلاد.
- عاش أهل الذمة في أواسط المجتمع وتمتعوا بحريات وحقوق وأظهر لهم المسلمين التسامح الديني.
- هم غير معنيين بالزكاة[4].

المبحث الثاني: طوائف أهل الذمة

لقد كشفت لنا الدراسات التاريخية جذور المجتمعات التي عاشت في الدولة الاسلامية الى جانب المسلمين، وهما طائفتي اليهود والنصارى الذين شكلو طوائف خلال القرون الوسطى، وكانو يمثلون طبقة مهمة داخل المجتمع الاسلامي.

I. طائفة اليهود:

- **اليهود في اللغة:** كلمة "يهود" جاءت نسبة إلى رابع أولاد يعقوب النبي عليه السلام من ليئة وجاءت كمصدر من "يَدُه" بفتح التاء وضم الدال والهاء في الأخير، وذلك نسبة لوالدته حين ولدته جاءها المخاض قالت "أُدِه" بضم الأول وكسر الدال والهاء لا تنطق[5].

وفي تعريف لغوي آخر جاءت بمعنى هادى الرجل أي رجع وتاب ، تعود هذه الكلمة إلى قول موسى عليه السلام "إنا هدنا إليك" أي رجعنا وتضرعنا إليك[6].

- **اليهود في الاصطلاح:** اليهود هم أمة موسى عليه السلام وكتابهم المقدس هو "التوراة" الذي هو أول الكتب السماوية، ويطلق عليه اسم "صحف" أي الكتاب المنزل على موسى عليه السلام وقد اشتمل

1 ابن القيم الجوزية، (691هـ-751هـ)، أحكام أهل الذمة، تح،أبي براء البكري وأبي أحمد العراوي، ج1،ط1، دار رمادي للنشر السعودية 1418هـ/1997م، ص 79.
2 قلقشندي، (821هـ/1418م)، صح الأغشى في صناعة الانشاء، ج3، دار السلطان، القاهرة، 1332هـ/1914م، ص 462.
3 اسماعيل كاشف، المرجع السابق، ص 72.
4 الخربوطلي، الاسلام وأهل الذمة، شركة الاعلانات الشرقية، القاهرة، 1389هـ/1969م، ص 68.
5 المقريزي، توفى (845هـ/1442م)، تاريخ اليهود وآثارهم في مصر، تح، عبد المجيد دياب، دار القصبة (د-ت) ص 19.
6 الشهرستاني، (548هـ/1153م)، ج2،تح، محمد الوكيل، الاتحاد العربي للطباعة، القاهرة، 1337م-1968م، ص 25.

هذا الكتاب على أسفار، وتحدث كل سفر على أمور كالخلق والأحكام والحدود وذكرت أيضًا فيه القصص والمواعض والأذكار ....[1]. ونجد في حين السلطان صاحب حماه وهو عماد الدين في تاريخه يقول: "وهم أعلم من بني اسرائيل لأن أكثر من أجناس العرب والروم وغيرهم قد دخلو في اليهودية من بني إسرائيل كتابهم الذي تمسكوا به هو الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام[2]. لقد تفرق اليهود إلى طوائف أهمها:

أ- **الربانيون:** تمت تسميتهم بالربانيون نسبة للكلمة العبرية "ربانيم" التي اشتقت منها وتعني الإمام والفقيه[3]. وردت كلمة ربانيون في كتاب الله تعالى في قوله سبحانه:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[4].

الربانيون هم أشهر الطوائف اليهودية وأكثرها عددًا في التاريخ، وهم يؤمنون بتلمود وأسفاره [5]. ويختلف الربانيون عن طائفة القرائين هي الأخرى من طوائف اليهود في أمور جزئية من خلال شرح الكتاب المقدس "التورات".

ب- **القراؤون:** وهي كلمة مشتقة من الكلمة العبرية "قَرُأ" بفتح ثم ضم ممدود والألف ساكنة والتي معناها: قرأ – نادى – دعا، وذلك يعود لهم إذ أنهم يؤمنون بما يقرأ وهي التوراة، ولم يتقيدوا بما جاء في التلموذ[6].، وكان القراؤون في الدرجة الثانية بعد الربانيون من خلال عددهم وعرفوا بأهل الدعوة [7].

ج- **السامرة:** وهم قوم أثبتو نبوة موسى وهارون ويوشع بن نون وأنكرو النبوة من بعدهم إلا نبوة نبي واحد إذ قالو: التوراة ما بشرت إلا بنبي واحد يأتي بعد موسى عليه السلام، يصدق ما بين يديه من التوراة، ويحكم بحكمها ولا يخالفها البتة [8].

1 الشهرستاني، المصدر السابق، ص26، القلقشندي، المصدر السابق، ج13، ص253.

2 الشهرستاني، المصدر نفسه، ص 252.

3 قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1415هـ/1994م، ص78.

4 سورة المائدة، الآية 44.

5 قاسم عبد قاسم، اليهود في مصر، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1413هـ/1993م، ص 44.

6 تلموذ ـــ هو كتاب مفسر للتورات وهو نوعان الأول "أورشليمي" وفيه أخبار اليهود منذ القدم، والثاني وهو "بابلي" يروي أخبار اليهود في عهود قديمة لكن "أورشليمي" أقدم من الأول وكان له أربعة أسفار وكل سفر يشرح للقارئ بعض الأمور، أنظر المقريزي المصدر السابق، ص 68.

7 قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر، المرجع نفسه ص48.

8 الشهرستاني، المصدر نفسه، ص 23.

وهم أتباع السامري[1] الذين ذكروا في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾[2] لذلك تم تسميتهم بالسامرة.

يشرف رئيس اليهود على الحكم بين اليهود كلهم من ربانيين وقرائين وحتى السامرة ويقوم بتسوية الخلافات بينهم ويساعده في ذلك كل من الخزان وهو المشرف على صلاة اليهود والشرط فيه أن يكون ملمًا بأحكام تلمود ويساعده أيضًا الشليحصبور: وهو الامام الذي يأم طائفة اليهود في صلاتهم[3].

II. طائفة النصارى:

- **النصارى في اللغة:**

أطلقت كلمة "النصرانية" على الدين المنزل على عيسى عليه السلام وكتابه الانجيل والأصل في كلمة النصارى التي اشتقت من النصرانية والتي تعود إلى بلدة أو مدينة "الناصرة Nazareth" في فلسطين وهي مسقط رأس المسيح عليه السلام حيث قال النصارى: «أَمِنَ الناصرة يخرج شيء صالح»[4].

وجاءت كلمة النصارى في القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[5]

- **النصارى في الاصطلاح:**

هم أمة عيسى عليه السلام أو المسيح ابن مريم، وهو الذي بعث بعد موسى عليه السلام وهو صاحب الكتاب المقدس الإنجيل وكما أنه عرف بمعجزاته كغيره من الأنبياء والرسل فعرف بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، قسم كتابهم الانجيل إلى أقسام وهي متى ولوقى ومرقس ويوحنى وخرج من النصارى طوائف اختلفوا في الاصول نذكر منهم الملكانية واليعاقبة الذين ظهور في مصر والشام[6].

---

1 السامري ــ وهو اسم موسى ابن ظفر من قوم يعبدون البقر، أضل اليهود من خلال حفرة وضع عليها التراب الذي أخذه من تحت فرس جبريل عله السلام وألقاه على حفرة حفرها هارون ليضعوا فيها الحلي، فألقى السامري التراب ذاك على الحفرة وقال كوني عجلاً فصار مثلما يريد فأمرهم بعبادة العجل، أنظر القلقشندي، ج 13 المصدر السابق، ص 268.

2 سورة طه، الآية 85.

3 سميرة دياب، صورة المجتمع الشامي في الدولة المملوكية الأولى (648هـ-783هـ/1250م-1381م)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي وآدابها جامعة مؤتة 2007، ص 86.

4 عرفان فتاح، النصرانية نشأتها وأصولها عقائدها، ط1، دار عمان، عمان- الأردن، 1460هـ/2000م، ص 14، أحمد الحصين النصرانية وما اعتراها من تحريف وتبديل، ط1، مكتبة الايمان للطباعة، (د-ب)، 1432هـ، 2011م، ص 08.

5 سورة الماءدة، الآية 51.

6 الشهرستاني، المصدر السابق، ص 26.

أ) **الملكانية:** وهي طائفة خرجت من النصرانية وقالت الملكانية: إن المسيح ناسوت[1] كلي لا جزئي وهو قديم الأزل وقد ولدته أمه إلهًا أزليًا والقتل والصلب وقع على الناسوت واللاهوت[2] وجاء هذا في اللغة أما الاصطلاح فهي كلمة في اعتقادهم تعود لقولهم: نؤمن بالله الواحد الأب[3] مالك كل شيء أي مالك كل شيء جاءت منها كلمة ملكانية وبطاركة النصارى الملكانية هم أقدم من اليعاقبة لأن المصادر الأولية تقول أنهم أتباع ملكان وظهر قديمًا ببلاد الروم[4]. وقد عرف الملكانية بولائهم للبابا وهم من الكاثوليك[5].

ب) **اليعاقبة:** وهم الأقباط الذين اتبعوا مذهب الطبيعة الواحدة Monophuysite، ويقال لهم اليعقوبية أيضًا ونسبوا إلى الأقباط الأرثودكس[6]، هم أصحاب يعقوب عليه السلام وقالو بأقانيم ثلاثة حيث قالو: «انقلبت كلمة حما ودما فصار المسيح هو الاله وهو الظاهر بجسده بل هو هو»، وقد أخبرنا القرآن الكريم عنهم في قوله تعالى:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[7]

واليعاقبة هم أتباع ديقرس كان اسمه في العلمانية يعقوب وقالو أنهم أتباع يعقوب البرذعاني وغيرها من الروايات بخصوص الى من ينتمون[8].

تمثل دور البطاركة[9] في تحليل وتحريم الأمور ويحكم صاحب الوظيفة بين النصارى، وزيادة على هذا فهو يقوم يقوم بمراعاة أمور الكنائس والأديرة والرهبان والراهبات، ويقوم بتفقد أمور بيع الكنائس كما فعل سالفيه من البطاركة، ويلاحظ الأمور الجزئية والكلية والظاهرة والخفية لهم ويساعده الأساقفة وهم عبارة عن نواب للبطاركة وأيضًا يسعده المطران وهو بمثابة القاضي يفصل بين الناس اذا تخاصموا وكذلك القسيسون وهم قراء الأناجيل والمزامير وغيرهم[10].

1 ناسوت، كلمة سريانية الأصل ، وهي طبيعة الانسان وحيل أصلها الناس وأضيفت لها التاء في الأخير وذلك مثل كلمتي، ملكوت وجبروت، أنظر الشهرستاني المصدر السابق، ص 26.

2 اللاهوت، كلمة سريانية الأصل بمعنى الألوهية وأضيفت لها الواو والتاء مثل جبروت ...إلخ، أنظر، الشهرستاني، المصدر نفسه ص 27.

3 الأب، الأب هو عنى النصارى بمعنى الأقنون الأول، أنظر الشهرستاني، المصدر نفسه، ص 28.

4 القلقشندي، المصدر السابق، ج13، ص267.

5 أكرم حسن العلبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ط1، الشركة المتحدة للطباعة، دمشق-سوريا، 1402هـ/1982م ص82.

6 قاسم عبده قاسم، عصر السلاطين المماليك، المرجع السابق، ص 82.

7 سورة المائدة، الآية 72.

8 الشهرستاني، المصدر نفسه، ص 30.

9 البطاركة، من البَطرك بباء موحدة مفتوحة ثم طاء ساكنة وبعدها راء مفتوحة ثم كاف في الأخير وهو لقب يطلق على من يتولى أمور الدين الخاص بالنصرانية أنظر القلقشندي، المصدر نفسه، ج5، ص 473.

10 سميرة دياب، المرجع السابق، ص 86.

المبحث الثالث: لمحة تاريخية عن أوضاع أهل الذمة قبل عصر المماليك.

عمدت الدولة الاسلامية على حماية ورعاية أهل الذمة داخل كيانها باعتبارهم عنصر فعال داخل المجتمع وعند تتبع أو ترصد الأحداث التاريخية يمكننا من خلال ذلك معرفة الحياة والأحوال التي حضي بها اليهود والنصارى من الفتح الاسلامي إلى غاية عهد المماليك.

1 عهد عمر ابن الخطاب والدولة الأموية:

- **عهد عمر ابن الخطاب:** (14هـ/635م) عندما فتحت مدينة دمشق في بلاد الشام، طلب أهل الذمة من بينهم النصارى الأمان في البلاد وذلك من خلال كتابة ومراسلة عمر بن الخطاب ﷺ طالبين فيها الأمان لهم ولأولادهم ولأموالهم وأعراضهم وكنائسهم، ومن ذلك نجد الرسالة التي كتبت لعمر في حين مصالحته للنصارى التي يرويها الامام حافظ جمال الدين أبو صادق مُحَمَّد، عن غيره ويقول: عن عبد الرحمان ابن غنم الذي كتب لعمر ابن الخطاب هذا الخطاب «هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا إنكم لما قدمتم علينا سألنكم الأمان لأنفسنا وذريتنا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها قلّية ولا صومعة راهب ولا نجد ما خرب منها: ديرًا ولا كنيسة ولا نخفي ما كان منها خطط المسلمين ولا نمنع كنائسنا .... ولا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا ولا في شيء من حضرة المسلمين ... ولا نجاورهم بموتانا ...» [1].

وجاء أيضا هذا الأمان كرسالة لعمر ابن العاص لأهل غزة وسبيطلة ونابلس وأيضًا لأهل البصرة وحمص وبلعبك وغيرها من الكتب والمراسلات، ومن خلال طلب الأمان للنصارى داخل الدولة الاسلامية بالبلاد الشامية أعطى عمر ابن الخطاب ﷺ لهم ذلك مقابل دفع الجزية المترتبة عليهم[2].

- **العهد الأموي:** ظهرت ملامح التسامح والتعايش السلمي بين أهل الذمة والدولة الأموية وبرزت شخصيات عملت في الادارة بشكل جيد، حتى أن المصادر التاريخية ذكرت أنه في عام (41هـ-

1 القلقشندي، المصدر السابق، ج13، ص 357.

2 فايزة حجازي، المرجع السابق، ص 32.

60هـ/661م-680م) في عهد معاوية ابن أبي سفيان كان داخل الدولة يعمل كل من سرجون ابن منصور الرومي على الديوان وكذا طبيب النصراني ابن آثال على خراج حمص[1].

أما في عهد الخليفة عمر ابن عبد العزيز 99هـ-101هـ/ 720م، أخذ هذا الأخير في ابعاد أهل الذمة عن أمور الكتابة، إذ أنه أمر بعزل الكاتب النصاري وتولية كاتب مسلم بدلاً منه لكن بعد فترة استمر الخلفاء بتولية هذا المنصب بصفة مستمرة في بلاد الشام[2].

ولعل ذلك يعود إلى ما تعرض اليه أهل الذمة في الدولة الأموية من بعض الاضطهادات مثل كسر الأصنام ومحو الصور من الكنائس وهذا من خلال الحملة التي شملتها البلاد الاسلامية في عام 108هـ[3].

2 العهد العباسي والدولة الطولونية:

- **العهد العباسي:** عاش أهل الذمة حياة خوف وفزع في بداية الدولة العباسية، اذ هدمت كنائسهم وتم اجبارهم على لباس خاص بهم لكي يبرزو عن عامة المسلمين، كما فرض على النصارى لبس الزنار[4] وغيرها من الفروض الصارمة في حقهم، وعلى غرار هذا نجد الأحوال الجيدة التي عاشها أهل الذمة اذ ذكرت لنا المصادر التاريخية العربية أنهم في عهد المقتدر (295هـ-320هـ/908م-932م) عمل النصارى في الوظائف التي كانوا يقومون بها من قبل كأمور الادارة وما شابه ذلك حتى أن ذلك أدى إلى استياء المسلمين من ذلك، فأمر الخليفة من خلال اصدار مرسوم بخصوص اسقاط الخدمة على الذميين ما عدا الطب والجهبذة (الصيرفة[5])[6].

لقد وضعت لأهل الذمة قيود كعدم عملهم في الدواوين لكي لا يختلط الحكم الاسلامي بالحكم النصراني واليهودي وهذا في عهد الخليفة المتوكل (216هـ-232هـ/823م-849م) اذ أنه أضاف لتلك القيود كالنهي عن تعلم أولادهم من كتتايب المسلمين وغيرها من القيود في حقهم[7].

---

1 فايزة حجازي، المرجع السابق، ص 35.

2 فايزة حجازي، المرجع نفسه، ص 40.

3 قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر، المرجع السابق، ص 31.

4 الزنار: وهو نوع من الألبسة وهو الحزام أو الوشاح الذي امتاز بلبسه أهل الذمة، أنظر: سعيد عاشور، العصر المماليكي، ط2، دار النهضة، القاهرة 1972م، ص 446.

5 الصيرفة أو الصيارفة: وهي مهنة ويقال لصاحب هذه المهنة الصيرفيوهو من يقوم بتبديل العملة حسب رغبة الطالب، وهي من المهن الرائجة في بلاد الشام خاصة ويقال لها الجهبذة، أنظر: مُحَمَّد القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، تح: ظافر القاسمي، ط1 دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، (د-ب)، 1988م ص 280.

6 ابن الثغري بردي، (864هـ/1469م) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تع، مُحَمَّد حسن شمس الدين، ج3، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان 1413هـ/1992م، ص 165.

7 محمد الوقاد، اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجنيزة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د-ب)، 1999، ص 40.

وفي عام 235هـ أمر الخليفة المتوكل بإصدار أوامر تخص لباسهم حيث أمر بأن يلبسو العمامة لونها عسلي والنساء منهم يلبسوا الازار كلما خرجن يبرزن بذلك الازار العسلي[1].

وعلى غرار ذلك أخذ نفوذ أهل الذمة في الاتساع من خلال اهتماماتهم في الجانب العلمي من نقل العلوم الفارسية والسريانية واليونانية الى العربية الى جانب نبوغهم في الطب[2].

ويتتبع مجريات الأحداث التاريخية التي توضح لنا أوضاع أهل الذمة في الدولة العباسية يتبين لنا أنهم تمتعوا بحقوق وحريات أدت بهم للوصول إلى مناصب عالية في الدولة العباسية ومن قبلها الدولة الأموية في كل من مصر والشام، إلا أنهم تعرضوا لاظطهادات في بعض الأحيان وربما كان هذا وراء الضغوطات التي كانت تعاني منها الدولة.

- **الدولة الطولونية بمصر**: (254هـ-292هـ/878م-905م) شهدت تطورًا في طائفتي اليهود والنصارى حيث أسلم بعض الذميين ودخلوا الأمة الاسلامية وهذا يدل على تأثرهم بالاسلام والمسلمين داخل الدولة المصرية[3]، ومن خلال وثائق الجنيزا ذكرت لنا أن هناك يهود عملوا في الجانب الاداري من أطباء داخل البلاط في عهد أحمد ابن طولون حيث استمر في الاعتماد عليهم في بلاطه وأيضًا ما جاء به المسعودي عن مناقشة دينية في قصر أحمد ابن طولون بين طبيب يهودي وأحد أقباط اليعاقبة[4].

وما يمكننا قوله عن أخذنا لمقتطفات عن حياة أهل الذمة في كيان الدولة الطولونية في مصر هو أنهم تمتعوا بحياة طبيعية والجميل فيها أن البعض منهم دخلوا الاسلام.

3 الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية:

- **الدولة الفاطمية**: في مصر (385/969م) قام الخلفاء الفاطميين الذين كان مذهبه شيعي بتقريب أهل الذمة منهم وذلك باعتبارهم من الأقليات الدينية داخل المجتمع المصري وكما قاموا بتوليتهم في الأمور الادارية والاقتصادية والسياسية[5].

وفي هذا العصر مع بدايته عاش أهل الذمة أزهى حياة لهم، حيث أنهم لم يعانوا من المضايقات المستمرة كالتي تعرضوا لها من قبل في عهود سابقة وربما حتى اللاحقة، نجد في عهد الخليفة الأول بعد فتح حلب بالشام يقول على المسيحيين في حلب كانوا بعد الفتح الاسلامي على أحسن حال وأنعم بال

1 ابن جرير الطبري، (224-310هـ) تاريخ الطبري، تح، مُحَمَّد أبو الفضل ابراهيم، ج9، ط4، دار المعارف، القاهرة، (د-ت)، ص 171.

2 فايزة حجازي، المرجع السابق، ص 42،43.

3 محمد الوقاد، المرجع السابق، ص 42،43.

4 قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر، المرجع السابق، ص 135.

5 محمد الوقاد، المرجع نفسه، ص47.

ممتزجين مع مواطنيهم المسلمين امتزاج الراح بالماء القراح راتعين في بحبوحة ناظرة من الفلاح والنجاح آمنين على أنفسهم وأموالهم ومعتقداتهم ينظر اليهم المسلم بلطف... [1].

لقد حضي أهل الذمة بمعاملات جيدة داخل الدولة على العموم، إلا أنهم في فترات متقطعة يتعرضون لمضايقات مثلًا في فترة حكم الخليفة الحاكم بأمر الله (382-411هـ/996-1021م) اذ قام بعزل أهل الذمة من المناصب الادارية بعدما كانوا قبل فترة حكمه متمتعين بأعلى الدرجات في الحكم كالوزارة وغيرها من المراتب في الدولة، فذهب الحاكم بأمر الله 395هـ/100م باستئصالهم من الحكم، والأمر بلبس النصارى لباس خاص بهم وأن يشدوا الزنار أما اليهود أمرهم بتعليق كرة من الخشب الثقيل على شكل عجل الذي كانوا يعبدونه وفي آخر أيامه عاود النظر في سياسته حول أهل الذمة وأمر بإطلاق الحرية لهم قبل موته 411هـ/1020م وعادت المياه إلى مجاريها بخصوص حياتهم[2].

- **الدولة الأيوبية:** شهدت الدولة الأيوبية بعض التخوفات من الفاطميين وعودتهم إلى السلطة في مصر فقد قام صلاح الدين الأيوبي بعد توليه الحكم بأمور احترازية كابعاد أهل الذمة عن الأعمال الادارية مثل الدواوين وغيرها من الأعمال السلطانية[3].

تدرج الأمر حتى تأقلم السلطان الأيوبي بوضع أهل الذمة داخل البلاد، وأخذوا في التقرب من صلاح الدين خاصة منهم الأطباء الذين كانوا يعملون في بلاطه، إذ أعطاهم الهدايا ورفع من قيمة رواتبهم، وكما مارس النصارى واليهود شعائرهم بكل حرية وطلاقة وخير دليل على ذلك هو ما ذكره الألماني "فيتزتوم بوركهارد ملاح فريدريك بربروس" والذي زار مصر فلاحظ الحرية التي تمتع بها أهل الذمة من خلال ممارسة شعائرهم وأمورهم التعبدية وذلك في عام (571هـ/1175م) حيث قال: أن اختيار العقيدة كان معقولا للجميع بحرية مطلقة[4].

نشط أهل الذمة في الجانب التجاري آنذاك خاصة اليهود وذلك يعود لثرائهم أكثر من النصارى[5].

بالرغم من الاختلافات الدينية والعقيدية بين الأمة الاسلامية وأهل الذمة إلا أن ذلك لم يقف كحاجز بل كان أمرًا عاديًا ولم يؤثر على استمرارية الحياة.

1 الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج1، الهيئة المارونية، (د،ت)، ص 194.

2 فايزة حجازي، المرجع السابق، ص 47-48.

3 محمد الوقاد، المرجع السابق، ص56.

4 محمد الوقاد، المرجع نفسه، ص 63.

5 محمد الوقاد، المرجع نفسه، ص 60.

الفصل الأول

الدور السياسي والدبلوماسي لأهل الذمة في الدولة

الفصل الأول

الدور السياسي والدبلوماسي لأهل الذمة في الدولة

المبحث الأول: تأثير أهل الذمة على السلطة.

1- الوظائف الادارية.
2- الامتيازات.

المبحث الثاني: الغرامات المالية المترتبة على أهل الذمة.

1- الجزية (الجوالي).
2- الضرائب الأخرى.

المبحث الثالث: العلاقات الخارجية لأهل الذمة.

1- مع ملوك بزنطة والحبشة.
2- مع ملوك أوروبا.
3- مع ملوك المغول والصليبيين.

لقد تربع أهل الذمة في كيان الدولة المملوكية وقاموا بتثبيت شوكتهم من خلال قربهم من السلاطين وتدخلهم في أمور الدولة، وترتبت عليهم التزامات وقيود وجب عليهم الالتزام بها بينما كانت لهم ارتباطات واتصالات بأهل مذهبهم في الخارج.

المبحث الأول: تأثير أهل الذمة على السلطة

1- الوظائف الادارية: تولى أهل الذمة مناصب عديدة في دولة المماليك ومن بين هذه المناصب الوزارة التي كانت في ذلك الحين تطلق على الموظف الذي يشتري حاجيات السلاطين وهذا حسب المقريزي[1] وتولي أهل الذمة مناصب أخرى من بينها نظر[2] الجيش ونظر الدولة ونظر الشام ... [3].

لقد أصبح أمر تقلد أهل الذمة لمناصب في الادارة يخيف عامة المسلمين وذلك لأن الثروات التي يأخذها هؤلاء الذميين كثيرة وعديدة، وهذا كله كان في نظر المسلمين أنه يعود لعملة السلاطين[4].

تجدر الاشارة إلا أن المماليك كانوا لا يتقنون بعض الأعمال ككاتب السر وصاحب ديوان الانشاء أي الوظائف الادارية (أرباب الأقلام) فكان معظم أصحابها من الذميين سواء نصارى أو يهود وأما الوظائف الدينية التي تقلدوها وفيها بطرك[5] النصارى اليعاقبة وبطرك الملكانية ورئيس يهود والقراؤون والربانيون ورئيس السامرة[6].

ألزمت الدولة المملوكية بحماية الرهبان ورجال الدين ويظهر ذلك من خلال الوثائق التاريخية الخاصة بذلك العصر خاصة القوانين أو المراسيم التي أصدرها السلاطين أمرائهم وذلك لألزام أهل الذمة بالتحلي بروح الاسلام، واتصاف بالعدالة وعدالة السلاطين المماليك في حق الذميين وذلك للعمل بالشريعة حيث صار أهل الذمة من يهود ونصارى عنصر فعال في كيان الدولة المملوكية إذ لا يمكن الاستغناء عنهم[7].

1 محمد الأشقر، الوزارة والوزراء في مصر عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2011م، ص 81.

2 نظر من الناظر هو من ينظر في الأمور ويتصرف فيها وينظر في حسابا وهو حسب اللغة مأخوذ من نظر بالعين لأنه ينظر بعينه في الأمور وجاء بمعنى المصلحة ويضاف إلى الكلمة نظر كنظر الجيش لأنه يهتم بأمور الجيش ونظر الدواوين من يهتم بأمور الدواوين وغيرهم. أنظر: القلقشندي (821هـ/1418م) صبح الأعشى، ج5 ط1، دار الكتب الخديوية، القاهرة 1333هـ/1915م، ص 465.

3 عمار محمد النهار، (دور أهل الذمة والجاليات الغربية ونشاطهم في عصر المماليك)، مجلة الدراسات التاريخية، العددان 125،126 كانون الثاني – حزيران 2014م ص202.

4 قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1415هـ/1994م، ص 92،94.

5 بطرك، بباء مفتوحة ثم طاء ساكنة وبعدها راء مفتوحة وهو لقب يطلق على القائم بأمور الدين الخاصة بالنصرانية. أنظر: القلقشندي، المصدر نفسه ص 473.

6 عمار محمد النهار، المرجع نفسه، ص 201.

7 سلوى ميلاد، وثائق أهل الذمة في العصر العثماني وأهميتها التاريخية، دار الثقافة للنشر، القاهرة، 1983م، ص 13.

وعلى ذكر الوزارة التي سبق لنا أن أشرنا اليها اذ سمحت لهم الدولة بتقلد مثل هذه المناصب بشرط أن تكون وزارة تنفيذ لا وارة تفويض، لأن والتفويض يمكن أن ينوب عن الحاكم في بعض الأحيان وكما يتصرف في أمور الجيش ويتولى تعيين الولاة ويتصرف في أمور بيت المال، علمًا أن هذه الأعمال ممنوعة عل غير المسلمين ومنهم أهل الذمة[1].

أهم الشخصيات التي تقلدت الوظائف الهامة في الحكم المملوكي:

1- كريم الدين: واسمه الكامل كريم الدين بن هبة الله بن السديد المصري، اتخذه السلطان الناصر وزيرًا له، أصله نصراني وكان له نفوذ واسع حيث اتخذه أيضًا السلطان بيبرس الجاشنكير كاتب سر[2] له بعدما أعلن اسلامه وهو في سن الشيخوخة، إذ أنه تظاهر باسلامه وقيل أنه كان يعامل الناس بقسوة لذلك كرهه الناس وحاولوا اغتياله أكثر من مرة وبعد ذلك قام الملك بمصادرة أملاكه[3].

2- عبد الله بن تاج: وهو عبد الله بن تاج الرئاسة بن الغنام الصحب أمين الدين أمين الملك كان وزيرًا بالديار المصرية والشامية في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون حيث أن أصله قبطي اذ تولى عدة مناصب في الدولة إلى أن أصبح وزيرًا واستوزر عدة مرات حتى قرر السلطان أن يوليه منصب نظر الشام ونظر الخواص ونظر الأوقاف في آن واحد في مكان شخص كان اسمه الشمس غبريال وبعد ذلك تم القبض عليه ومصادرة أملاكه وتوفي (740هـ/1340م)[4].

3- أشرف الدين أبو سعيد: وهو أشرف الدين أبو سعيد هبة الله قام بتنصيبه السلطان أبيك الذي هو أول سلطان في دولة المماليك البحرية، عينه وزيرًا اذ أن الأشرف أصله قبطي، أخذ هذا الأخير نفوذًا واسعًا في الدولة وكانت أعماله تعود على الدولة بالنفع بدليل قول المقريزي: «أن هذا الوزير أسرع في وضع ضرائب جديدة أسماها "الحقوق السلطانية" فتحصل منها الناس ما ل خير فيه»[5].

4- عبد الرحمان بن عبد الرزاق: وهو عبد الرحمان بن عبد الرزاق بن ابراهيم مكناس القبطي ولي لمنصب وزارة البلاد الشامية وتوجه إلى دمشق وبقي فيها، وذهب إلى حلب رفقة السلطان الظاهر برقوق

1 ميساء تحسين، صورة اليهود في العصر المملوكي الأول(648هـ-784هـ) مذكرة لنيل شهادة الماجستير في اللغة وآدابها، جامعة النجاح، كلية الدراسات العليا نابلس – فلسطين، 2013، ص 28.

2 كاتب السر، وهو صاحب ديوان الانشاء وقد تقدم الكلام عليه مستوفى عند الكلام على الكتابة والكتاب في مقدمة الكتاب أنظر القلقشندي، المصدر السابق، ج5 ص 464.

3 علي ابراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية في عصر الناصر محمد بوجه خاص، مكتبة النهضة المصرية، (د.ب)، 1944 ص 134.

4 فايزة حجاي، أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، جامعة اليرموك 1987م، ص 224.

5 جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام 1922م، مؤسسة الهنداوي، القاهرة، 2012، ص 147.

وكان قد طلب منه أن يقوم باستوزاره إلا أن المنية أخذته (791هـ/1391م)، وذكرت المصادر التاريخية أنه كان أعجوبة في عصره[1].

5- وفي دمشق نجد نجم الدين حسين بن عبد الله السامري أصله من يهود السامرة وقد تولى منصب كاتب السر حيث باشر عمله في دمشق (812هـ/1409م) ثم بعد ذلك انتقل لتولي منصب نظر الجيش بدمشق عام (825هـ/1421م) ومن ثم أعيدت إليه واستمر بها حتى مات (831هـ/1427م)[2].

6- وفي عام 1508م روى الراحلة بوم جارتن Boum garten الذي زار القدس في هذه السنة يقول: توجهنا تحت حماية اليهودي الذي كان لنا ترجمان[3] كان يقوم بحراستنا لكي نرى تلك الأماكن المقدسة، وأيضًا المرشد السياحي الذي كان يعمل في مدينة الخليل وهو من الحجاج المسيحيين الذي كان يرافقهم ويبيع لهم النبيذ[4].

وإلى جانب ذلك مارس اليهود في بلاد الشام خاصة مهن ومناصب كمنصب كبير التراجم وذلك خلال القرن التاسع ميلادي والخامس هجري، وهو في وقتنا الحالي بمثابة وزير الخارجية حيث يقوم بترجمة الرسائل القادمة من الدول الأخرى، ويقوم باستقبال السفراء والرحالة والحجاج الأوربيين وغيرهم، واستمرة ذلك المنصب لتسهيل عملية التواصل بين الملوك والأمراء نذكر من بينهم:

في عهد الملك برسباي (825هـ-842هـ/1421م-1439م) كان يعمل كبير تراجم أصله يهودي قشتالي من اشبيلية يدعى (ساليم)، كان يعرف اللغة الايطالية والتركية واليونانية والعربية والألمانية وأيضًا الفرنسية بقي في بلاط السلطان، إلا أنه سجن وذلك لأنه كان يكاتب الفرنج ويخبرهم بأحوال المملكة في سنة (917هـ/1511م)، كان يساعد كبير التراجم مساعدون وهم أيضًا يستقبلون الحجاج ويقومون بارشادهم في القدس مثلا، ولهم بطاقة يراسلون بها قائدهم وهو كبير التراجم في القاهرة وهو بدوره يعرضها على السلطان، ومن بين هؤلاء المساعدين ذكرت لنا المصادر التاريخية Rev Henry Farmly الذي أصله يهودي من الألمان كان دليلا للحجاج ومصاحب لهم ومرشد كذلك[5].

1 جاك تاجر، المرجع السابق، ص 147.

2 فايزة حجازي، المرجع السابق، ص 224.

3 الترجمان، هو اسم يطلق على من يقوم بترجمة اللغة العربية إلى تركية مثلاً أو إلى لغة الفرنج، وهي حرفة أو مهنة مميزة عمل بها أيضًا النصارى في بلاد الشام أنظر: مُحَمَّد القاسمي وآخرون، قاموس الصناعات الشامية، تح: ظافر القاسمي، ط1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، (د، ب)، 1988م، ص 87.

4 علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ط1، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1986م، ص 104.

5 فايزة حجازي، المرجع نفسه، ص 240.

بالرغم من وجود مراسيم أصدرها بعض السلاطين فيما بعد تحد من استخدام الذميين في الوظائف الادارية خاصة ما تعلق منها بالدواوين والمالية، لكنها كانت مجرد حبر على ورق إذ لم تدخل حيز التنفيذ إلا نادرًا لأنهم عنصر فعال لا يمكن الاستغناء عنهم في الأمور الادارية بالدولة[1].

2-الامتيازات:

لقد منح السلاطين المماليك بعض الامتيازات لأهل الذمة ونذكر منها:

1- في عام 709هـ أعطى السلطان بيبرس الجاشنكير[2] للرهبان امتيازات من بينها إعفاءهم من بعض الواجبات داخل الدولة[3].

2- وفي عهد السلطان جقمق (843هـ-856هـ/1429م-1432م) أصدر هذا الأخير مرسوم يمنح فيه رهبان الفرنسيكان حرية السكن وممارسة الأعمال الترميمية التي تخص كنائسهم المهدمة من حوائط دير صهيون وهذا المرسوم كان من نائب السلطان بالقدس إلى ناظر الحرمين الشريفين[4].

3- نودي في القاهرة أنه لا يمكن الاعتداء على أهل الذمة من نصارى ويهود داخل البلاد وكما أشارت بعض الوثائق التاريخية عن اهتمام السلاطين برعاياهم أهل الذمة وجاء في أسطر من وثيقة من تلك الوثائق «فنحن بحمد الله معتنون بمصالح الرعية وان اختلفت مللهم وآرائهم وتفرقت مذاهبهم»[5].

4- اعتنى السلطان خشقدم (865هـ-872هـ/1461م-1467م) بالنصارى واعطائه لرهبان دير صهيون الحق في دفن موتاهم واعفائهم من الضرائب التي كانت مفروضة عليهم في كل مرة أرادوا دخول كنيسة القيامة (القمامة[6]) وهذا المرسوم كان في عام (869هـ)[7].

---

1 محمد الوقاد، اليهود في مصر المملوكية في وثائق الجنيزة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د-ب)، 1999، ص 167.

2 الجاشنكيرة، هو اسم يطلق على الذواق يذوق الأكل قبل السلطان خوفًا من أن يكون بذلك الأكل سُم أو ما شابه وهو مصطلح مركب من لفظين فارسيين الأول هو "جشنا" ومعناه الذوق والثاني "كير" ومعناه هو الذواق الذي يقوم بالذوق. أنظر: القلقشندي المصدر السابق، ج5، ص460.

3 أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، 1968، ص 48.

4 أحمد دراج ، المرجع نفسه، 57.

5 محمد الوقاد، المرجع نفسه، ص 99

6 القمامة، وهي كنيسة القيامة واطلقت عليها تسمية القمامة بموجب ان اليهود دفنو خشبة الصليب وجعلو فوقها قمامات ونجاسات فقامت هيلانة ام قسطنطين بالمجيء إلى القدس واستخرجت تلك الخشبة وغسلتها وغشتها بالذهب وبنت مكانها كنيسة القيامة وهي المسماة كنيسة القمامة . انظر: القلقشندي، المصدر نفسه ج13،ص285

7 فايزة حجازي، المرجع السابق، ص 71.

5– عمل السلطان برقوق في عهده على منح أهل الذمة بعض الامتيازات كمنحه لهم الحرية في تشييد كنائسهم وخصوصًا نصارى الكرك[1] والشوبك[2] في بلاد الشام واعفائهم من الضرائب وأعطاهم الحق في لبس العمامة البيضاء إلى جانب المسلمين[3].

6– خلال عهد السلطان الغوري منحت للنصارى حقوق كحق ترميم كنائسهم وإصلاحها في عام (915هـ/1519م) وفي عام (919هـ/1513م) أصدر هذا الأخير مرسوم يعلن فيه اعطاء الحق للنصارى بدفن موتاهم وإعفائهم من الضريبة المحتمة عليهم (الملحق رقم01) كلما دخلوا كنيسة القيامة وعلق هذا المرسوم على باب كنيسة القيامة[4]، سمح السلطان مُحَمَّد بن قاتباي لرهبان النصارى باصلاح وترميم ما تهدم من سقف كنيسة المهد ببيت لحم وهكذا كان في عام 903هـ[5].

أما بالنسبة لليهود فقد أعطيت لهم امتيازات في ترميم معابدهم مثل معبد جبل الزيتون الذي كان مبنيًا بالرخام المزركش، حيث ولي بهذا العمل "الرابي أبرهام ياري" الذي قيل أنه قدم رشوة للمماليك مقابل بقائه في القدس[6].

المبحث الثاني: الغرامات المالية المترتبة على أهل الذمة

لقد ترتب على أهل الذمة سواء نصارى أو يهود في حين اقامتهم بالدولة المملوكية مجموعة من الالتزامات المالية والتي هي شرط أساسي في عقد الذمة وذلك مقابل الحفاظ على أنفسهم وأعراضهم وكذا أموالهم داخل الدولة.

1– الجزية (الجوالي):

لم تكن الجزية أو الجوالي[7] محددة القيمة بل كانت تختلف من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان حتى ان القلقشندي يقول: أنه في الفرن التاسع هجري الخامس عشر ميلادي وصل الجزية إلى خمسة

1 الكرك ـــ بسكون الراء، وآخره كاف، وهي قرية في جبل لبنان وهي من أهم الثغور الشامية أغلب أهلها نصارى، وهي مدينة حديثة البناء، كانت عبارة عن دير ثم كبرت زاد توافد النصارى اليها وعرفت بأسواقها، استولى عليها الفرنج وفيما بعد فتحها صلاح الدين الأيوبي على يد أخاه العادل. أنظر: ياقوت الحموي (626هـ/1228م) معجم البان، ج4، ط1، دار الصادر، بيروت 1977/1397م ص 452، القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص165.

2 الشوبك، وهي قلعة حصينة على أطراف الشام تقع بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك. أنظر: القلقشندي، المصدر نفسه،ج3،ص370.

3 فايزة حجازي، المرجع السابق، ص 74.

4 فايزة حجازي، المرجع نفسه، ص 74.

5 أحمد دراج، المرجع السابق، ص 62.

6 فايزة حجازي، المرجع نفسه، ص 75.

7 الجوالي، وهي الجزية أو نقول جالية وترتبت على أهل الذمة، وسميت بالجوالي لأن عمر ابن الخطاب أجلاهم من الجزيرة عربية ثم ألزم أهل الذمة بدفع الجزية وفق قواعد الشريعة الاسلامية. أنظر: القلقشندي، المصدر نفسه، ص 462.

وعشرون درهمًا وكان أقل ما يدفع فيها حوالي عشرة دراهم وذلك في الديار المصرية[1]، أما في بلاد الشام فلم تكن تختلف عن مقدار الجزية في بلاد مصر، حيث أنها كانت تدفع بحسب حالة الأشخاص الذميين فذكر ابن طولون أنها كانت تؤخذ منهم في كل سنة هجرية لا شمسية ويضاف إلى كل جزية درهمان وربع عن رسم المشد والمستخدمين[2].

أما في أمر جمع الجزية فقد كان العريف أو الحاشر[3] الذي هو بدوره ينظر في أمر أهل الذمة ويحضرهم لأداء الجزية، وكان رئيس طائفة منهم يقوم بالكتابة كل عام إلى المباشر[4] الجوالي قوائم سميت بقوائم "الرقاع" وهي قوائم تضم كافة أسماء النصارى واليهود المقيمين هناك وتضم أيضًا أسماء الصبيان الذين لم يبلغوا الحلم، وفيها أسماء النصارى واليهود الذين اعتنقوا الاسلام[5].

وبخصوص صرف أموال الجباية تلك فذكرت المصادر التاريخية أن جزءًا منها يذهب لبيت المال والجزء الآخر يدفع كرواتب لأهل العلم والفقهاء[6].

لقد كان أهل الذمة في عهد المماليك يتهربون من الدفع فنجد المقريزي يقول عنهم: «وصاروا ينتقلون في القرى ولا يدفعون من جزيتهم إلا ما يرونه فقل ما تحصل من هذه الجهة بعد كثرته»[7].

2- الضرائب الأخرى:

لقد عرف أهل الذمة نوعًا آخر من الالتزامات المالية المترتبة عليهم وهي الضرائب التي كان السلاطين المماليك يصدرون أوامر لكي يدفعها الذميون ومن هذا المنطلق نذكر:

أ- في عهد السلطان بيبرس في عام (660هـ-1261م) فرض ضريبة جديدة على النصارى وكانت قيمتها دينار على كل فرد سنويًا.

1 القلقشندي، المصدر السابق، ج3، ص 462،463.

2 القلقشندي، المصدر نفسه، ص 492.

3 الحاشر، وأطلق المماليك عليه اسم العريف، وهو من يشرف على احضار الذميين لأداء الجزية وينظر في أمر الصبيان الذين لم يبلغوا الحلم والنساء والشيوخ ومن أسلم منهم. أنظر قاسم عبده، اليهود في مصر، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1413هـ/1993م، ص 139.

4 المباشر الجوالي، هو المواطن الذي يكلف بادارة العمل واشراف تنفيذ المبيعات وأطلق المماليك هذا الاسم على من يتولى شؤون الجزية. أنظر: حسن باشا الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية، ج5، دار النهضة العربية، القاهرة، 2018، ص 982.

5 قاسم عبده، عصر السلاطين، المرجع السابق، ص 149.

6 قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر من الفتح الاسلامي حتى نهاية المماليك، ط1، عين الدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، (د.ب)، 2003م ص66.

7 المقريزي، (854هـ/1450م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد مصطفى زياد، ج،ط1، مطبعة لجنة التأليف والنشر، (د، ب) (د-ت)، ص 712.

ب- وفي مرسوم آخر في عهد السلطان بيبرس أصدر هذا المرسوم بخصوص النصارى بعد اشعالهم للحريق في مصر والقاهرة يفرض عليهم فيه دفع مبلغ مالي قدره خمسين ألف دينارًا[1].

ج- وفي عام (794هـ) جاء مرسوم بخصوص مصادرة أموال اليهود وأدى ذلك إلى هروب بعض من اليهود إلى مناطق مجاورة خوفًا من تسديد الضريبة[2].

د- وفي عام (740هـ/1399م) أصدر السلطان برقوق مرسوم ينص على دفع ضريبة مقدارها ألف درهم وسبب ذلك هو الحريق الذي قام به أهل الذمة وخاصة اليهود منهم، وذلك لأجل اصلاح الجامع الأموي الذي احترق[3].

هـ- ولا ننسى الضريبة التي كانت مفروضة على النصارى كلما أرادو الدخول إلى كنيسة القيامة[4].

ومن الضرائب التي فرضت على أهل الذمة وهي ضريبة الطرح أو الرمي وهي عبارة عن سياسة احتكارية اتخذها السلاطين المماليك لاحتكار بعض السلع وبيعها لأهل الذمة بأسعار حددوها هم ففي عام (896هـ/1490م) خلال قيام سلطنة الأشرف قاتباي ألزم هذا الأخير اليهود والنصارى إلى جانب المسلمين بالقدس شراء الزيت المتحصل من جبل نابلس بثمن عشرة دنانير لكل قنطار من الزيت[5].

وفي عام (705هـ/1304م) أصدر مرسوم بمصادرة أوقاف الكنائس والأديرة التي بلغت قيمتها الاجمالية خمسة وعشرين ألف فدان، حيث تم توزيعها على الأمراء[6].

وفي عام (901هـ/1502م) خلال سلطنة الأشرف قاتباي أخذ ابنه الناصر محمد في فرض الضرائب على اليهود النصارى والتجار وأعيان الناس والقضاة وغيرهم وفي حالة عدم الدفع يعاقبون بالضرب أو الحبس وغيرها من العقوبات[7].

يتضح من الأمثلة السابقة المتاعب المالية التي واجهت أهل الذمة في بلاد الشام ومصر كانت تتم في نطاق اجراءات مالية عامة تشمل كل طبقات المجتمع في بعض الأحيان وفي حالات أخرى كانت تفرض تلك الالتزامات المالية بسبب مظاهر الاضطرابات التي سببها أهل الذمة من فتن وحرائق وفي بعض المرات

1 قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر ، المرجع السابق، ص67.

2 ابن القاضي، (851هـ/1448م) تاريخ ابن القاضي شبهة، تح: عدنان درويش، ج3، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية دمشق، 1977م، ص 432.

3 سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر السلاطين المماليك، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1992، ص 53.

4 فايزة حجازي، المرجع السابق، ص 71.

5 محمد النقر، تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي، ط1، دار البداية، الأردن، 1426هـ/2006م، ص 140.

6 قاسم عبده، أهل الذمة في مصر، المرجع نفسه، ص 68.

7 قاسم عبده، المرجع نفسه، ص 69.

كانت تفرض لحاجة الدولة للأموال وذلك كان وراء الأوضاع الصعبة الاقتصادية لها وخصوصًا عندما كانت تستعد لقتال أعدائها خارج البلاد.

المبحث الثالث: العلاقات الخارجية لأهل الذمة

1- العلاقة مع ملوك بزنطة والحبشة:

- **العلاقة مع ملوك بزنطة:**

لا يمكننا تقرير العلاقات التي كانت بين الدولتين بصفة عامة هل كانت ودية أو عدائية؟ بل يمكننا الاستخلاص والاستنتاج من خلال الكتب والمصادر الأولية التي تبين أن العلاقات كانت بين الدولة المملوكية والبزنطية على العموم نقول حسنة في بعض الأحيان وذلك من خلال تتبع العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين، إذ كانت بينهما عهود ورسائل تخصهما، لكن لا يهمنا العلاقة بينهما بل ما يهمنا هو علاقة أهل الذمة بالدولة البزنطية، ويبرز ذلك من خلال المراسلات التي كانت بين الدولتين بشأن أهالي الذمة ومن بين تلك المراسلات نذكر:

- في عام (659هـ/1261م) عقدت معاهدة تجارية بين الدولتين وفي بنودها أوصى الامبراطور البزنطي لسلطان الظاهر بيبرس بأن يقوم هذا الأخير بسماح للبطريريك[1] أرتودسكي بأن يقيم في الاسكندرية وارسال بطرك من الطائفة الملكانية أي مسؤول عنها والتي هي جزء لا يتجزأ من الدولة البزنطية[2].

- ثمة اتفاقية بين الدولة البزنطية والدولة المملوكية في عام(680هـ/1981م) في عهد المنصور ابن قلاون وعهد الامبراطور أندرو نيقوس جاء في طيات هذه الاتفاقية أن يعامل النصارى معاملة جيدة خاصة الملكانية وغيرهم من الطوائف وكما أوصى أيضًا الامبراطور البزنطي بتسهيل التجارة على أهل الذمة عامة المقيمين في الأراضي المملوكية[3].

1 البطريريك، هو لفظ رومي كان يدعى أولا بالبابا ثم نقل إلى بابا رومية، كما ذكر أنه في الاسكندرية لم يكن في الزمن المتقدم مختص ببطرك اليعقوبية، كان تارة يكون بطرك يعقوبي وتارة بطرك ملكاني. أنظر: القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص 473.

2 أحمد دراج، المماليك والفرنج، دار الفكر العربي، القاهرة، 1961م، ص 335.

3 عمار محمد النهار، المرجع السابق، ص 269.

– أرسلت سفارة أخرى من الامبراطور أندرونيق الثاني لسلطان المنصور ابن قلاون في عام(705هـ/1305م) محملة بالهدايا ونصت هذه السفارة على: اعادة الكنيسة المصلبة في بيت القدس إلى صاحبها بعدما قام المسلمون بتحويلها إلى مسجد في عهد السلطان الظاهر بيبرس فلم يستجب لطلبه في المرة الأولى حتى أعاد الكرة في ارسال مبعوث آخر إليه بعد سنوات لنفس الأمر فاستجاب له بعد تلك المحاولات، وبالتالي أعيدت الكنيسة للمسيحيين، واضافة إلى هذا قبل وصيته نحو الاحسان لأهل الكتاب ومعاملتهم معاملة طيبة مع السماح لهم ببناء كنائسهم بكل حرية [1].

– أما في سنة (812هـ/1405م) خلال عهد السلطان برقوق ابنه الملك الناصر فرج بعث له الامبراطور البزنطي مانويل الثاني الذي كان عهده من (794هـ-829هـ/1391م-1425م) بهدايا مع وصيته الملحة على النصارى مراعاة أحوال البطرك[2].

– وفي الأخير نستنتج من خلال ما سبق أن الدولة البزنطية كانت حريصة كل الحرص على العناية بأهل الذمة خاصة النصارى الملكانيين في الدولة المملوكية وذلك لكونها طائفة لا تتجزأ من الدولة البزنطية، لذلك أقام أباطرة بزنطة اتفاقيات ومعاهدات دبلوماسية حول تأدية واجباتهم نحو النصارى.

- **العلاقة مع ملوك الحبشة:**

الأحباش جلهم ينتمون للكنيسة الأرثودكسية الشرقية (اليعاقبة) ومن خلال هذا نجد اهتمام ملوك الحبشة بأهل الذمة خاصة النصارى وذلك يعود لوحدة الديانة بينهما ويظهر ذلك من خلال:

–شفقة ملوك الحبشة للمسيحيين وذلك حين أرسل رسول الحبشة الزرع يعقوب المكس قسطنطين من نسل يوسف أرعد بن يحي سليمان بن داود عليه السلام إلى ملوك مصر في سفاراتهم في سنتي (726هـ/1325م) و(847هـ/1443م) حيث قال في احدى رسالاته بعد التمهيد والشكر والثناء قال «والرحمة أيام ولدنا وحدنا من المحبة والاتفاق على ما ظهرت به الصحائف من أخبار الحميدة وسيرهم المرضية وأنهم كانو قائمين بالعدل خصوصًا باخوتنا النصارى متوصين ويرجعو عنهم القوم الرائدين وهن كنائسهم ..... وقد بلغنا الآن هذه القواعد تغيرت من قبل قوم كانو عن طريق العدل حائدين وفي الظلم خائضين والآن اذ مات أحد من اخوتنا النصارى لا يدفن إلا بعد مشقة كبيرة لأهله وأقاربه .... ثم بلغنا أيضًا أن ثم من يتعرض إليهم في كنائسهم في أوقات صلاتهم وفي أعيادهم .... وأنهم في غاية الضيق وأنتم

1 سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، ص 243.

2 فايزة حجازي، المرجع السابق، ص 27.

حفظكم الله عارفون ما يلزم الراعي من النظر في حال رعيته وأن الله يطالب بذلك وأبونا البطريك واخوتنا النصارى حالتهم الآن تحت سلطتكم ومملكتكم .... إلخ»[1].

- وفي عام (841هـ/1437م) أرسل رسول الحبشة من طرف ملكها أنذاك وهذا الرسول هو زرع يعقوب بطلب من السلطان برسباي بتمتين العلاقات بين البلدين وأوصاه بالرفق بالنصارى وكذا حماية أماكن تعديهم من الاعتداءات، وبالطبع استجاب له السلطان برسباي بوصيته[2].

اضافة لما سبق نذكر ملوك وأمم أخرى شفعت أشفقت على أهل الذمة خاصة النصارى رغم الفتن التي كانوا يقومون بها داخل البلاد، إذ أن ملوك بزنطة كما ذكرنا راسلوا سلاطين المماليك بغية معاملة النصارى معاملة جيدة، ويعود ذلك لأنهم اتخذوا اجراءات تعسفية والقمعية لهم داخل كيان الدولة المملوكية[3].

2- العلاقة مع ملوك أوروبا:

ظهرت سفارات من الدول الأوروبية على اختلاف أنواعها، وقد بان من خلالها اهتمام ملوك أوروبا بالذميين، اذ حملت تلك السفارات في طياتها رسائل ووصايا تخص طوائف أهل الذمة، وبالطبع استقبلت بكل ترحيب في أغلب الأحيان من سلاطين المماليك، ومن بن هذه السفارات نجد:

- رسالة ملك أرغونة يعقوب للملك الناصر بن قلاون في مصر التي تناولت في محتواها أمور داخلية بين الدولتين (اسبانيا ودولة المماليك) واضافة لذلك كان هذا ملك أرغونة من خلال رسالاته يظهر عطفه على المسيحيين، وراحت المراسلات بينهما فكانت احداها في عام (703هـ/1303م) وأخرى في عام (728هـ/1327م) كما كانت الرسالة السابعة التي أرسلها الملك الناصر للرد على مبعوثه ملك أرغونة في عام (723هـ/1323م) وجاء فيها: «بعد السلام والتمهيد ... أما فيما ذكره في مكاتبة ثانية بسبب الرهبان الذين أرسلهم، فقد أجبناهم إلى ملتمسهم أما بقية النصارى فهم عندنا موقرين من الجانب على يسره لأنهم رعايانا وبحمد الله ما يكون من رعايانا إلا موقرًا من جميع المكارم .... الخ»[4].

1 السخاوي، (831هـ-903هـ) التبر المسبوك في ذيل الملوك، ج1، ط1، المطبعة الأميرية، مصر، 1892م، ص 69،70.

2 فايزة حجازي، المرجع السابق، ص 260-261.

3 عمار محمد النهار، المرجع السابق، ص 255.

4 By Aziz Souryal Atiya, Egypt And AR Agon Embassies and Diploumatic correspndence between 1300 and 1330 A-D, Kommission sverlag-F-A Brockhaus LEIPZIG, 1938, P 48.

– تجدر الاشارة إلى أن القوى الغربية التي طالما كانت معادية لدولة المماليك إلا أنها كانت تراعي أحوال أهل الذمة، وذلك لمساندة القوى الصليبية للوصول إلى الأماكن المقدسة، فعملت أوروبا لكسب ود المماليك وذلك من خلال مراسلات كرسالة "البابا يوحنا الثاني والعشرين" إلى "جانب ملك فرنسا شارل الرابع" اشتركا في ارسال سفارة إلى القاهرة في (727هـ/1327م) طلبوا فيها السلطان الناصر محمد بن قلاون أن يحسن للمسيحيين المقيمين في دولته وأن يعاملهم نفس معاملة المسلمين في غرب أوروبا، أما في تركيا أرسل الامبراطور قسطنطين بهدايا وكتاب للملك الناصر قلاون لكي يعامل أهل مذهبه من المسيحيين من طائفة الملكانية بالدولة المملوكية معاملة حسنة[1].

لم تذكر لنا المصادر التاريخية عن علاقة اليهود بغيرهم، إلا نادرًا في العهد المملوكي، اذ وجدت اتفاقية أبرمت بين دولة المماليك والدول الأوروبية وكان بين السلطان برسباي وملك أرغونة (اسبانيا) نصت على السماح لليهود أن يشتغلو في أعمال الترجمة وأبرمت في عام (834هـ/1430م) وتمت الاتفاقية التجارية بين الطرفين، ظل اليهود يشتغلون في الترجمة وخير مثال على ذلك في عام (918هـ/1512م) عند زيارة أحد ملوك فرنسا مصر استقبله يهودي يعمل مترجم في خدمة دولة المماليك استعمله ملك فرنسا في شكر مندوب الاسكندرية في حين استقباله[2].

3- العلاقة مع ملوك المغول والصليبيين:

- **العلاقة مع ملوك المغول:**

لقد أظهر المغول علاقتهم الودية بأهل الذمة عامة لاسيما النصارى، وما يؤكد ذلك هو أن الملك "أباقا خان" عامل خلال حكمه المسيحيين معاملة جيدة وقربهم له اذ وجدنا بعض المؤرخين اعتقدوا أن سبب عطفه ودخوله المسيحية يعود لزوجته التي كانت مسيحية وهي "ديسيبنا" "Despina" ابنة "ميخائيل باليولاجوس" "Michall Palaeolagus" بينما ظهرت أراء أخرى تقول أن سبب اهتمامه بالمسيحيين هو أنه كان في علاقة مع البابا وملك أوروبا وصليبيي الشام وهذه العلاقة امتازت بالود[3]، وفي نفس الوقت "أباقا خان" أظهر كرهه وعدائه للمسلمين، وفي حين اعتلاء ابنه الملك أرغون الحكم قام بطرد

1 علي ابراهيم حسن، المرجع السابق، ص 175.

2 محمد الوقاد، المرجع السابق، ص 123.

3 علي ابراهيم حسن، المرجع نفسه، ص 144.

المسلمين من البلاط ووظف مكانهم اليهود والمسيحيين وقربهم له وأعطى منصب الوزير ليهودي اسمه سعد الدولة اليهودية، رغم أن عمه تكودار الذي سمى نفسه أحمد بعد اسلامه إلا أنه قام بتوظيفهم في الدولة[1].

- **العلاقة مع ملوك الصليبيين:**

كانت العلاقة بين الصليبيين ككل وأهل الذمة خاصة النصارى ودية في الغالب، ويبرز ذلك من خلال المعارك التي كان يخوضها السلاطين في الدولة المملوكية ضد الصليبيين وبالأخص في عهد السلطان الظاهر بيبرس مع نظيره هولاكو، اذ لعبت هذه المعارك دورًا هامًا في تبيان المساعدات التي كان يقدمها النصارى للصليبيين ضد دولة المماليك[2].

ويتبين ذلك من خلال الأحداث التاريخية التي وصلت الينا من طرف كتابات المؤرخين فمثلا في حادثة مساعدة النصارى للبطريك جبرائيل الحجلاوي وأتباعه للصليبين الغزاة داخل البلاد المملوكية، وعلى هذا منع المماليك التجارة على النصارى في السواحل القبرصية ومنعهم من التوجه إليها، وتم القبض على جواسيس النصارى بعدما انسحبت القواة القبرصية من طرابلس وتم القبض على البطريك جبرائيل وتم حرقه[3].

اهتم السلاطين المماليك بأهل الذمة من حيث أنهم منحوهم حريات وامتيازات ليعيشوا سعداء داخل الدولة مع التزامهم بدفع الغرامات المالية المترتبة عليهم وذلك من خلال تقيد المسلمين والسلاطين بما تقوله الشريعة وهو التعايش السلمي والتسامح الديني.

1 جليلة حسن، العلاقة بين المماليك والخانات مغول فارس وأثرها عى مصر وبلاد الشام، (648هـ-741هـ/1250م-1341م) مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه في فلسفة التاريخ، جامعة شندي، السودان، 1440هـ/2018م، ص 119.

2 فايزة حجازي، المرجع السابق، ص 287.

3 فايزة حجازي، المرجع نفسه، ص 294.

الفصل الثاني

اسهامات أهل الذمة في المجال الاقتصادي

الفصل الثاني

اسهامات أهل الذمة في المجال الاقتصادي

المبحث الأول: الزراعة.

1- الزراعة عند اليهود.
2- الزراعة عند النصارى.

المبحث الثاني: الصناعة.

1- الصناعة عند اليهود.
2- الصناعة عند النصارى.

المبحث الثالث: التجارة.

1- التجارة الداخلية.
2- التجارة الخارجية.

يعتبر الاقتصاد من الركائز الأساسية التي ترتكز عليها الدولة في حين الاقتصاد هو أحد أعمدة الدولة فإذا كانت ركيزتها متينة تكون قائمة لا ساقطة ومنهارة فقد ازدهرت الحياة الاقتصادية في كل من مصر والشام خلال عهد السلاطين المماليك وكما يتضح ازدهارها من خلال الانتعاش في الزراعه والصناعة والتجارة التي نشط فيها المسلمون واليهود والنصارى وكما ساعدت سياسة السلاطين القائمة على التسامح الديني الذي جعل من أهل الذمة يعملون في مجال الزراعة والصناعة والتجارة في وسط الدولة وذلك وفقا لتعاليم الشريعة الإسلامية التي تمجد العمل الحلال.

المبحث الأول: الزراعة.

عندما نذكر مصطلح الاقتصاد فان اول كلمه تخطر على البال هي الزراعة باعتبارها العنصر الاول من عناصر الاقتصاد إلى جانب الصناعة والتجارة وعلى هذا فقد ساهم أهل الذمة إلى جانب المماليك على اختلاف طوائفهم المسلمين اليهود النصارى في مجال الزراعة حيث أنهم امتلكوا أراضي وغرسوا فيها وأصبحت لهم بساتين قاموا بجني محاصيلها فيما بعد لتسهيل عليهم عملية العيش في أواسط الدولة وليكون الذمي كفرد ناجح.

1- الزراعة عند اليهود:

الزراعة عند اليهود من خلال الأماكن التي عاش فيها اليهود من قرى ومدن وحارات داخل كل من مصر والشام يتبين لنا اهتمامهم في مجال الزراعة اذ وجدت الأراضي الزراعية والبساتين مثمرة في تلك الأماكن نذكر قرية الجوبر بدمشق التي بها نهر دائم الجريان وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ممارسة اليهود للزراعة[1]، وفي حين نجد ياقوت الحموي ذكر في كتابه أن القيسي كان يفتخر بزراعة تلك المنطقة[2].

لقد عرفت بلاد الشام بزراعة الزيتون في كامل أرجاء البلاد الشامية من الجبال و الأودية والسواحل فمدينة نابلس كانت بها بساتين من الزيتون[3]، والتي هي مدينة فلسطينية وصفها الحموي بأن أهلها سامرة وكانت بها مجاري مائية[4].

اشتهرت القدس خاصة غزة بنوعية الخمور الجيدة فقد روى الرحالة جوسية (Gucci) عام (749هـ/1348م) أن منطقة غزة فيها كروم كثيرة وكان اليهود يزرعون فيها العنب ويعصرون خمره وكما أن

1حسن العلبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، (966هـ/1520م)، ط1، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق-سوريا (1402هـ/ 1982م) ص 63.

2 ياقوت الحموي، (626م/1228م)، معجم البان،ج2، ط1، دار الصادر، بيروت، (1397هـ/1977م)، ص 176.

3 فايزة حجازي، بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، مذكره لنيل شهادة الماجستير، التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية جامعه اليرموك، 1987م، ص 97.

4 الادريسي، (650هـ/1164م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،ج1، مكتبة الثقافة، القاهرة، 1422هـ/2002م)، ص 365.

المنطقة الممتدة بين بيروت ودمشق في أعالي الجبال وهي بجانب السهل زرع فيها اليهود أشجار الكروم إلى جانب النصارى[1].

ويبدو أن مدينة الخليل[2] هي ايضا كانت فيها أراضي خصبة صالحة للزراعة فأثمرت مزارعها أنواعًا من الفواكه كالتفاح والعنب وامتازت بزراعة القمح وكان من بين سكانها اليهود الذين كانت لهم حارة خاصة بهم وعرفت باسمهم[3].

تجدر الاشارة إلى أن اليهود داخل مصر كانت لهم همة في المجال الزراعي، حتى أنهم امتلكوا أراضي زراعية خصبة وأخذوا في زراعتها وتنويع بساتينها من كروم وخمور، كما أنهم استأجروا مزارعين من غير فئة اليهود لمساعدتهم بأمور الفلاحه[4].

2- الزراعه عند النصارى:

سكن النصارى في منازل قريبة من ديرهم التي كانت قريبة من الاراضي الخضراء بها بساتين ذات أشجار مثمرة ومن بين هذه الدير نجد "دير مارجرس" (في بلودان في ضواحي دمشق) كان هذا الدير بعيد على الطريق الذي يمر منه الناس في اعالي الجبل به الكثير من الاشجار والكروم المثمرة بالرغم من ذلك إلا أن أهل اللهو وشرب الخمر لم يذهبوا اليها ربما لصعوبة التضاريس هناك حيث وصفها العمري الذي هو ابن دمشق (عاش هناك) اذ يقول عن بلودان: بنائها بديع الحسن وافر الغلة كثير الكروم والفواكه والماء الجاري بقرية بلودان وهي محاذية لكفر عامر تطل من مشرقها على جنة الزبداني ببلاد دمشق وبها رهبان نظاف وغلمان من أبناء النصارى طرف مررت به ونزلت... ورأيت... نخيل وطرف كحبل قد قطع الزنار بين خضره وردفه... الخ[5].

وفي دير القديسة "تقلا" التي تقع في منين بظاهر دمشق، ومنين حاليا هي قرية اسلامية قريبة من دمشق، بها اشجار كثيرة ومثمرة بالفواكه ونباتات وكانت بلدة نصرانية يسكنها النصارى، اذ وصفها احد سياح الفرنجة في حين زيارته لدمشق في عام (703هـ/1503م) قائلا: وعلى مسافه 16 ميلا من دمشق وجدت مدينة أخرى تدعى منين في قمة الجبل وسكانها مسيحيون من ملة الروم وهم رعية حاكم دمشق

1 فايزة حجازي، المرجع السابق، ص 99.

2 الخليل، هي مدينة شامية تقع جنوب بيت المقدس في وادي الجبال وقد ذكر أغلب المؤرخين كالمقدسي والاصطخري والإدريسي والحموي، أنها عرفت بأشجارها الكثيرة وسميت بالخليل نسبة الى ابراهيم الخليل عليه السلام، ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج2، ص 387.

3 يوسف غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، دار الحياة، الاردن-عمان، 1992م، ص 63.

4 مارك كوهين، بين الهلال والصليب وضع اليهود في القرون الوسطى. تر: اسلام ديه معز خلفاوي، ط1، منشورات الجمل بغداد، 2007م، ص 442.

5 حبيب الزيات، الديرات النصرانية في الاسلام، ط4، دار المشرق، بيروت-لبنان، 1938م، ص 144.

وبها كنيستان في غاية الجمال ويقال أن القديسة هيلانة بنتها وهي والدة القيصر قسطنطين، في منين فواكه حسنة غزيرة وأعناب طيبة وبساتين كثيرة وزاهية وينابيع ماء... الخ[1].

وفي مدينة تسمى عم في بلاد الشام وهي بين أنطاكيا وحلب بها مجاري مائية وكان سكانها من طائفتين اليهود والنصارى وهذا حسب ما ذكره ياقوت الحموي[2].

أما مدينة الجادية هي بلدة تقع بالبلاد الشامية عرفت بزراعة الزعفران والذي لونه أحمر مائل للصفرة ويسمى أيضًا بالكركم يستخدم للصناعة والدواء وكما كان يستخدم كعادة في مواسم الأفراح والأعياد عند أهل الذمة منذ القدم واستمرت إلى عهد المماليك حتى القرن (10هـ/16م)[3].

كانت المحاصيل الزراعية تتعرض للحرق في بعض الأحيان مثلما حدث لبساتين العنب التي أحرقها نائب حلب الأمير يشبك[4] بقلعة الكرك التي أغلب أهلها نصارى ووقع هذا في عام (821هـ/1420م)[5].

كما أكد الرحالة الذي عاش في القدس وهو بريكارد (1280م) الذي يقول: أن هناك الكثير من أشجار الكروم، ولكن المسلمين الذين يحكمون البلاد لا يشربون النبيذ إلا القليل منهم سرًا، لكن الكثير من المسلمين الذين يعيشون إلى جانب المسيحيين يزرعونه لكي يستفيدون من بيعه...إلخ[6].

وقد ذكر أبو الفداء في كتابه أن طرابلس مدينة رومية على طرف داخل في البحر فتحها المسلمون في عام 886هـ، ولها بساتين وأشجار كثيرة مثل قصب السكر، كما ذكر هذا الاخير ان مدينة الشوبك بلدة صغيرة كثيرة البساتين وغالب سكانها من طائفة النصارى[7].

وفي مصر وجد "دير نهيا" الذي سكانه نصارى، عرف هذا الدير بجماله الطبيعي من مزارع تغطي أراضيه ومجاريه المائية الغزيرة[8]، أما دير "ماريوحنا" هو خاص بالنصارى يقع في شاطئ بركة الجيش بينه وبين

1 حبيب الزيات، المرجع السابق، ص 141.

2 ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج4، ص 157.

3 ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ص 92.

4 يشبك، هو الأمير والمشد اشتراه السلطان المؤيد الشيخ الذي كان نائب طرابلس في ذلك الحين بألف دينار وذاع صيته في البلاد تولى نيابة طرابلس ونيابة حلب توفى (824هـ/1421م). أنظر: السخاوي، (903هـ-1446م) الضوء الامع لأهل القرن التاسع ج1،ط1، دار الجيل، بيروت، (1412هـ/1992م) ص 279.

5 فايزة حجازي، المرجع السابق، ص 100.

6 علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهره، 1586م، ص 194..

7 أبو الفداء، (732هـ)، تقويم البان، ج1، ط1، دار الصادر، بيروت، 1830م، ص 353.

8 ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج2، ص 539.

الفسطاط، قريب من النيل بجانبه بساتين وهذا إن دل على شيء فهو يدل على اهتمام النصارى بالزراعة[1].

وفي الواحات المصرية كانت بها واحات داخلية وأخرى خارجية، فالداخلية فيها مدينة كبيرة تسمى ميمونه اذ بها أربعة وعشرون بلدة عرفت بالبساتين الكثيرة والمثمرة ومن بينها بلدة القلمون وهي معروفة بزراعه الكروم والأرز، وذكر المؤرخون أنها كانت بالقرب من كنيسة النصارى[2].

المبحث الثاني: الصناعة.

كان لأهل الذمة دور كبير في المجال الصناعي اذ مارسوا الكثير من الصناعات والحرف التي كانت لها شهرة بالغة في الأسواق المحلية والخارجية، ومن بين هذه الصناعات التي امتازوا بها نذكر أهمها:

1- الصناعة عند اليهود:

من خلال وثائق الجنيزة علمنا ان معظم اليهودي في عهد المماليك وبالاخص في مصر لم يتم تصنيفهم من الطبقه الاثرياء بل من الطبقه المتوسطه بمعنى اخر كانوا من التجار والحرفيون الصغار كما اشارت هذه الوثائق بان اليهود مصر كانوا اكثر واحسن حالا من يهود بلاد الشام وخير دليل على ذلك هو انه في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري والرابع عشر ميلادي أرسل أحد يهود "حيرون" خطابا نيابة عن جماعته إلى أسياد ورؤساء الطوائف اليهودية في مصر يطلب الدعم من اخوانه اليهود وصفا لهم حال الفقراء في بلاد الشام[3].

إشتغل اليهود في مجال الحرف والصناعات مثل الصباغة وصناعة الذهب والحلي والفضة إلى جانب صناعة الحلويات والكعك، وكذا المنسوجات واهتموا بصناعة السكر وغيرها من الأعمال[4].

إن مهارة اليهود في المجال الحرفي والصناعي جعلتهم أصحاب مكانة في اوساط المسلمين في دولة المماليك، حيث تحدث عنهم بعض المؤلفات والمؤرخين كمايد، اذ ذكر أن صناع اليهود كانوا سببا في شهرة صناعة الصياغة والأواني الخزفية والزجاجية الدقيقة .... إلخ.

1 ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص 335.

2 ابن دقماق، (809هـ/1406م) الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج5، ط1، المطبعة الأميرية، مصر، (د-ت)، ص12.

3 محمد الوقاد، اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجنيزه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ب)، 1999، ص 169.

4 محمد الوقاد، المرجع نفسه، ص 170.

وجاء في كتابه أن الشهرة جعلت التجارة في القمة في العصور الوسطى خاصة في عهد السلطان قلاون، وكان هذا الازدهار في مدينة طرابلس وصور وغيرها من المنتوجات التي تصدر نحو أوروبا[1].

دون ان ننسى الحرير الذي اختص فيه اليهود خاصة في بلاد الشام في فلسطين، اذ كانت من الصناعات القديمة والرفيعة، فظهر القزازين[2] والحياكين[3] وغيرهم[4]، وعلى ذكر الحياكة نجد اليهود قد مارسوا الخياطة في أواسط مصر في القرن الثامن هجري والرابع عشر ميلادي إلى جانب العمال المصريين، ضف إلى ذلك النسيج والغزل ان كان في حلب معملاً تأسس على يد تجار من طائفة اليهود في عام 1290، بعد ما أنفقوا عليه أموالا طائلة كان هذا المعمل بالقرب من مدينه أنطاكيا بالسيف العاصي يعمل بالدوران على الماء ولكنه سرعان ما تم غلقه وتم بيع أدواته[5].

أما الصناعات الغذائية، فقد ساهم اليهود في هذا المجال إلى جانب المسلمين في مصر حتى أن المسلمين كانوا ينهون عن شراء الحلويات التي يبيعها هؤلاء اليهود خوفا من دناستهم فقد استعان أهالي مصر بصبيان اليهود في نقل الحلويات المصنوعة إلى البيوت كغلة[6]، وفي بلاد الشام كان الناس يستعملون الحلويات كالمعمول والغريبية وأنواع أخرى، عرف أصحاب هذه المهنة باسم "الشراباتية" وذلك نسبة لأنواع الأشربة الخاصة بالحلوى، ومحلات اليهود كانت إلى جانب محلات المسلمين فكانت محلات اليهود حوالي 30 محل خاص بهم[7].

وبالنسبة لصناعة السكر ومطابخ السكر التي اشتهر بها اليهود في العهد المملوكي في مصر، اذ كانت لهم حوالي خمسه أو ستة مطابخ خاصة بصناعة السكر في القرن (8هـ/14م) ومطابخ المسلمين حوالي 56 مطبخ[8]، وكان أصحاب مطابخ اليهودي يتولون ادارتها بأنفسهم[9].

1 هايد، التجارة في الشرق الادنى في العصور الوسطى، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985، ص 190.

2 القزازين، وهي حرفة من الحرف ويطلق اسم القزازة على صانع الزجاج، أنظر: مُحَمَّد القاسمي وآخرون، قاموس الصناعات الشامية، تح: ظافر القاسمي، ط1 دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، (د.ب)، 1988، ص 337.

3 الحياكين، جاءت من اسم الحائك الذي أطلق على من يقوم بغزل الخيوط سواء كانت من حرير أو صوف أو كتان والصنعة يطلق عليها اسم الحياكة وآلة الحياكة يقال لها المنوال. أنظر: مُحَمَّد القاسمي، المرجع نفسه، ص 87.

4 مُحَمَّد الوقاد، المرجع السابق، ص 174.

5 الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج1، المطبعة المارونية، حلب، (د.ت)، ص 108.

6 مُحَمَّد الوقاد، المرجع نفسه، ص 172.

7 ابن الغزي، المرجع نفسه، ص 107.

8 مُحَمَّد الوقاد، المرجع نفسه ص 175.

9 قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ط1، دار الشروق، القاهرة، (1415هـ/1994م)، ص 139.

كما اشتهر اليهود ايضا بالصباغة[1] فكانوا يصبغون الحرير الأحمر وغيره من الغزل والثياب بالحناء لتكون حسنة، أما عن أماكن الصناعة كانت قريبة من الأماكن التي يسكنها الأقباط وكانت تباع في القسطاط، واهتم اليهود بالحلي والنحاس وذلك لشهرة الصناعة تلك في العصور الوسطى وبشكل كبير، إذ صنع اليهود الأحجار الكريمة وتحف عديدة كانت تستعملها العروس لتأخذها معها كجهاز[2].

امتهن اليهود أيضا في مجال الصناعات الصغيرة مثل صناعة عصى الكحل والمرايا والمراوح والأمشاط وظهر منهم الخبازين[3] والفرانين[4] والكبوديين الذين يبيعون الكبد وغيرهم واشتهرو بذلك في مصر[5].

وإلى جانب ذلك نجد النساء من طائفة اليهود مارسن صناعة النسيج والاحتراف في صناعة العروس كمهنة الماشطة، وبرزت منهن الدلالات لبيع وترويج تلك المنسوجات والغزل المصنوع من خلال زيارتهن للمنازل[6].

2- الصناعة عند النصارى:

عرف النصارى بالدباغة[7] وبالأخص في البلاد الشامية وخير دليل على ذلك ما جاءت به المصادر التاريخية أن نصراني في مدينة حلب كان يعمل بالدباغة وكان محله في نهر قويق في ظاهر باب أنطاكيا كانت له آلة تعمل أو تدور بالبخار، فعمل بهذه الآلة التي تدبغ الجلد الفرنجي الذي كان يستعمل للقندورات لكن لسوء حظ ذلك النصراني أن هذا النوع من الجلد لم يكن يستعمل كثيرا لدى الناس وذلك أدى إلى تعطيل تجارته وحرفته أيضًا[8].

1 الصباغة، وهي حرفه من الحرف ويطلق اسم الصباغ على الذي يقوم بهذه الحرفة وهو من يعمل في صباغة أصناف الاقمشة ويصبغ الحريره وأنواع الغزل على الوان مختلفة فمنها الاحمر والأصفر والكوازي الابيض والذهبي والبرتقالي والكحلي واللازوردي وغيرها من ألوان الصباغة ويكون ذلك حسب الطلب. انظر: مُحَمَّد القاسمي، المرجع السابق، ص 67.

2 مُحَمَّد الوقاد، المرجع السابق، ص 172.

3 الخبازين، وهو لفظ جاء من الخباز وهو من يقوم بخبز الخبز لبيعه في الاسواق. أنظر: ابن الحاج، (737هـ/1336م) المدخل إلى الشرع الشريف، ج4 مكتبة دار التراث (د-ث)، ص 170.

4 الفرانين، وهو من يخبز الخبز يشتريه منه اهل البيوت في المدينة التي يعمل فيها مقابل أجر معين، عمر ابن الحاج، المصدر السابق، ص 175.

5 قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر، ط1، دار الشروق، القاهره، (1413هـ/1993م)، ص 97.

6 قاسم عبده قاسم، المرجع نفسه، ص 104.

7 الدباغة، وهي مهنة تطلق على العامل بها وهو صانع الجلود يقوم بإزالة الشعر عند تلك الجلود بآلة خاصة بها ويستعمل مادة الشب لتسهل عليه الدباغة وتمر عملية الدباغة بمراحل كمرحلة السلخ والتنقيع لمدة عشرة أيام وكانت هذه الجلود تنقع في مياه البحر بالشام. أنظر: محمد القاسمي، المرجع نفسه، ص140.

8 الغزي، المرجع السابق، ص 104.

أما في مجال صناعة الأحذية التي احترف بها المسيحيين إلى جانبي اليهود والمسلمين كانت الأحذية المصنوعة في ذلك الحين تعرف بالقندرة ولهم حوالي 50 دكانًا وذكرت المصادر أن أكثر صناع هذه الأحذية كانوا من النصارى[1].

وبالنسبة لصناعة النسيج والغزل فقد اشتهر أهل الذمة باهتمامهم بالنسيج والغزل، إذ امتاز النصارى بصناعة المناديل وتسمى بصبغ المناديل التي وفرت لهم أرباحًا طائلة، لكن مع السنوات الأخيرة في دولة المماليك أخذت هذه الحرفة في الاضمحلال وذلك يعود لعامل التقليد الذي كان من أيدي الفرنج اذ كان يطلق على المحل الذي تباع فيه اسم الكرخانة[2].[3]

امتاز النصارى أيضا بصناعة الخمور وعصر الكروم إلى جانب اليهود بكل حرية حتى أن بعض السلاطين كانوا يزودوهم بالعسل اللازم للخمر في أثناء عصر العنب، فنجد في عام (814هـ/1412م) أصدر والي القاهرة أمرًا لأهل الذمة بتوزيع الخمر على الأسرى، ولكن فيما بعد أوقف الملك برسباي هذا في عام (831هـ/1428م) إذ أمر بالحد من عصر العنب[4].

المبحث الثالث: التجارة

تعد التجارة قلب النابض في الاقتصاد فقد اعتمدت الدولة المملوكية على أساليب وطرق وعلاقات تجارية لتكون تجارتها في قمة الإزدهار، فنجد المسلمين يبيعون منتجاتهم في داخل البلاد أو خارجها وإلى جانبهم أهل الذمة الذين هم من الطوائف الدخيلة على الدولة إلا أنهم مارسوا التجارة بشتى أنواعها وساهموا في تطويرها داخليا وحتى خارجيًا.

1- التجارة الداخلية:

نشط أهل الذمة في مجال التجارة داخل الدولة المملوكية، فمنهم اليهود الذين أمتازوا بتجارة الخمور بإعتبارها تجارة مربحة في حين وجدت وثائق الجنيزة التي نصت على الغاء المتعاقدين بين تاجر يهودي مع

1 الغزي، المرجع السابق، ص 150.

2 الكرخانة، وهي اسم يطلق على المحل الذي تباع فيه الأقمشة والنسيج وهي تعود بالنفع على تاجر القماش وعلى أنواع الأصبغة والصباغون والشطافون وغيرهم، ووصفها الغزي بأن في عهده كانت موجودة كرخانة الصباغة، أنظر: الغزي، المرجع نفسه، ص 104..

3 الغزي، المرجع نفسه، ص 104،105.

4 عامر نجيب، الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي، ط1، دار الشروق، عمان-الاردن، 2003، ص 263-264.

أحد التجار الفسطاط حول الغاء ايصال الكميات المطلوبة من الخمر[1]، وكما عرفوا يبيع العطور وخاصة العطور النادرة كالعنبر والنشادر وهذه التجارة حققت لهم أرباحا طائلة[2].

وتشير المصادر التاريخية إلى أن أغلب سكان الإسكندرية كانوا أثرياء يعملون في مجال التجارة وحتى التجارة العالمية إلا أنها فيما بعد تدهورت بسبب القوات القبرصية التي خربت البلاد المصرية في عام 1365م[3].

اهتم اليهود في الفسطاط ببيع الزيت الذي كان من ضروريات الحياة اذ كانت في القرن التاسع هجري لهم حانوت مخصص لبيع الزيوت والحبوب بحي اليهود في الفسطاط بمصر وإلى جانب هذا باع هؤلاء اليهود منتوجات النسيج وصدروها إلى بلاد الشام[4].

وفي بلاد الشام نجد اليهود اهتموا بالتجارة الداخلية ويتضح ذلك من خلال أسواقهم فكانت لهم أسواق كسوق الصناعة وسوق الصرف وغيرها من الاسواق الخاصة بهم[5].

كانت منطقة دمشق فيها بضائع لهم متنوعة قريبة من أماكن بيع المسلمين، فقد كانت تجارتهم في سوق البزورية وسوق جقمق وغيرها، فهذا يدل على العلاقة الحسنة بين اليهود والمسلمين، اذ لم يكن أي مسلم يكن الحقد لأي يهودي فكانوا يتعاملون تجاريًا بطريقة سليمة[6].

لقد كانت بلاد الشام تعج بالسلع التجارية خاصة منطقة قلعة دمشق التي كان بها أسواق كثيرة قريب من الجامع الأموي، وكان يشرف على كل سوق مشرف وهو شيخ يعمل بواسطة بين التجار والحكام ويطلق عليه اسم القياصري، كان يشرف على أمور الحساب المحتسب وهو بدوره يراقب الأسعار في الأسواق ويعرف من خلال عمله الغشاشين والمتلاعبين بالأسعار والمحتالين... الخ[7].

وبالنسبة للباعة المتجولون فكانوا يجوبون في القرى ويأخذون مالًا وفيرًا يعود عليهم بالنفع حيث أن منازلهم بعيدة عنهم لا يذهبون إليها إلا قليلا في أيام رسمية كالعيد وغيرها من المناسبات وبالحديث عنهم فقط كتب "يتسحاق بن مئير لطيف" في القرن (9 هـ / 15 م) في خطاب أرسله إلى القدس يقول: أن

1 محمد الوقاد، المرجع السابق، ص 112.

2 محمد الوقاد، المرجع نفسه، ص 189.

3 قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر، المرجع السابق، ص 25.

4 محمد الوقاد، المرجع السابق، ص 196.

5 محمد النهار، (دور أهل الذمة والجاليات الغربية ونشاطهم في عصر المماليك) مجلة الدراسات التاريخية، العددان 125،126، كانون الثاني حزيران 2014 ص253.

6 حسن العلبي، المرجع السابق، ص 88.

7 فايزة حجازي، المرجع السابق، ص 253.

اليهود كانوا يعملون في التجارة في القرى في دمشق ثم يعودون أدراجهم بسلام وذلك لأن الطرق كانت آمنة[1].

أما بالنسبة للنصارى فقد كانت لهم أسواق موسمية يعرضون فيها منتوجاتهم في بهو كبير أمام كنيسة القيامة اذ اهتموا ببيع الأطعمة للحجاج وبيع الحلي والمسابيح وصور خاصة بالقديسين هناك حيث يروي الرحالة بيروطافور في حين زيارته للقدس من عام (848هـ/1436م) فيقول: «إن المسيحيين المحليين وخاصة الروم كانوا يقومون بدخول الكنيسة ويبيعون فيها الأطعمة للحجاج المسيحيين...» كما سمح لهم ببيع تلك البضائع بكل حرية وذلك من خلال إقامة أسواقهم في أيام الاحتفالات[2].

وقد أشارت بعض المصادر التاريخية إلى أن بعض المسيحيين قد مارسوا التجارة بشكل طبيعي داخل مصر وكانوا يتقيدون بقوانين وضوابط وضعتها الدولة عليهم[3].

بينما نجد فليكس فابري الذي زار فلسطين عام (888هـ/1483م) وصفها في قوله «عند وصولنا إلى المدينة وجبنا تجار الرملة والقدس ومعظم بضائع معطرة... كانوا يحملون ماء الورد وجاءوا بها من دمشق وأيضا البلسم والمسك والأحجار الكريمة... وكان الباعة من المسيح ويهود ومسلمين يحملون الخبز والطعام والماء...» [4].

وعلى ذكر دمشق كان بالقدس تجارة داخلية ويشرف على النصارى القياسيرية[5] في بيت المقدس حيث كان يشرف على أمور التجارة ويغلق الأبواب ليلا وكان المحتسب يراقب ويراعي حالات الغش والاحتكار وغيرها هناك[6].

2- التجارة الخارجية:

ربطت الدولة المملوكية علاقاتها التجارية بدول أخرى كالدول الأوروبية والدول المجاورة كالسودان وغيرها، وذلك ساهم في ازدهار حركة التجارة الخارجية للدولة وقد ساهم المماليك وأهل الذمة من يهود ونصارى في عملية التبادلات التجاريه في الخارج.

---

1 محمد الوقاد، المرجع السابق، ص 200.

2 علي السيد، المرجع السابق، ص 209.

3 قاسم عبده، أهل الذمة في مصر من الفتح الاسلامي حتى نهاية المماليك، عين الدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، (د-ب)، 2003 ص141.

4 فايزة حجازي، المرجع السابق، ص 123.

5 القياسرية أو القياسيريات وهي عبارة عن حوانيت في شكل مجمعات تجارية تباع فيها سلع متماثلة، ويقوم بحراستها حارس يغلقها ليلا ويفتحها نهارًا، وكما أنه مسؤول ادارتها وهو بدور له الحق في اسكان التجار. أنظر: المقريزي، (854هـ/1450م) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج3، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان (1418هـ/1997م) ص 458،460.

6 مروان بكير، المدينة الفلسطينية في عهد المماليك، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية الدراسات العليا، التاريخ العربي الاسلامي، بيروت، 2004-2005 ص161.

يعتبر اليهود من الطوائف النشطة في مجال التجارة الخارجية وذلك يتضح من خلال بيعهم المنتجات بالتجزئة وضف إلى ذلك معاملاتهم مع الدول الأوروبية في مجال التجارة خاصة مع إيطاليا وهذا حسب المصادر التاريخية التي تعود للقرن(9هـ/15م)[1]. ويذكر المؤلف هايد أن تجارة اليهود إمتازت بالنجاح وساهمت في تطوير التجارة مع الدول الأوروبية[2].

أما عن التجارة البحرية على مستوى البحر المتوسط فنقول أن اليهود لم يكن لهم حظ كبير في التجارة الخارجية إلى حد بعيد وذلك بسبب الإضطهادات التي كانت تواجههم كطردهم من جنوة لأكثر من مرة وغيرها من الأسباب التي وقعت كعائق أمام تجارة اليهود وتطورها[3].

أما بالنسبة للنصارى فقد مارسوا التجارة إلى جانب المسلمين في كل من الكرك والشوبك بالشام، يشير ابن سعيد إلى تجاره النصارى خارج البلاد فيقول: «...جزائر الغول (لعلها جزائر تيران) يأوي اليها السودان عراة يتكلمون بكلام غلق وثقيل ولهم مراكب بقدرهم وبيوت من نصب وحشيش ولا عيش لهم إلا من السمك ويغسلونه في ماء البحر للشمس وذلك تلميحه ثم ينشفونه دون ماء ويحملونه مقددًا إلى الطور والسوس فيبيعونه من نصارى الكرك والشوبك بالزبيب والزيت والزيتون»، وهذا يدل على أن مدينتي الكرك والشوبك كان أغلب سكانهما نصارى وقاموا بمبادلات تجارية مع اليهود ويتضح لنا كذلك أن نصارى الشوبك كانوا أغنياء وأكبر دليل على ذلك أنه في عهد السلطان برقوق أخذ رجل في مد يد المساعدة للسلطان لأجل انفاقه على الجيش مقداره مائة ألف دينار[4].

كانت كل من الكرك والشوبك منطقتان رئيسيتان في بلاد الشام حيث نشط النصارى في الجانب التجاري بإعتبار هاتين المنطقتين مركزًا هاما وملتقى للتجار القادمين من الشرق نحو الغرب الأوروبي يأتون إليها من فارس والهند، إمتازو بسلع وبضائع ومنتوجات غزيرة[5].

أما في مصر فإن أغلب المصادر التاريخية أشارت إلى إهتمام النصارى في تطوير التجارة الداخلية وحتى الخارجية بشكل طبيعي[6].

وفي الأخير نقول أن النشاط الاقتصادي لأهل الذمة لم يكن بارزًا إلى حد بعيد مقارنة بأهل مصر والشام في أواسط دولة المماليك، وذلك ربما يعود للأوبئة التي كانت منتشرة بينهم في فترات متقاطعة من

1 محمد الوقاد، المرجع السابق، ص 213،214.

2 هايد، المرجع السابق، ص 190.

3 محمد الوقاد، المرجع نفسه، ص 213.

4 محمد البخيت، مملكة الكرك في العهد المملوكي، ط1، الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية، الأردن، 1976، ص 28.

5 فايزة حجازي، المرجع السابق، ص 120.

6 قاسم عبده، أهل الذمة في مصر، المرجع السابق ص 141.

الزمن، وكذا قله الامكانيات خاصة عند النصارى رغم عددهم الكثير مقارنة باليهود الذين كان عددهم قليل إلا أنهم كانوا أغنى منهم، كما كان عامل اللا استقرار يعيق نشاطهم الزراعي والصناعي وحتى التجاري وضف إلى ذلك تكاثر الضرائب التي كانت مفروضة عليهم وفي بعض الاحيان كانت تصدر مراسيم رسمية تضاعف تلك الضرائب.

الفصل الثالث

تأثير أهل الذمة على المجال الاجتماعي والعلمي والثقافي

الفصل الثالث

تأثير أهل الذمة على المجال الاجتماعي والعلمي والثقافي

المبحث الأول: المجال الاجتماعي.

1- الاستقبالات السياسية والعادات والتقاليد.
2- الأعياد والاحتفالات.
3- الأعمال التخريبية.

المبحث الثاني: المجال العلمي والثقافي.

1- حركة الترجمة.
2- المؤسسات العلمية(المدارس والمكاتب).
3- الطب والأطباء.

عرف أهل الذمة في أواسط مصر والشام خلال عصر المماليك تطورا حضاريا وعلميا لاسيما بعدما تمتعوا بحقوق وحريات مدنية ودينية، فبرز من طائفة اليهود والنصارى عناصر كتبت أسماءها من ذهب عبر الفترات التاريخية في الدولة، بينما وجدت عناصر أخرى تركت بصمات دنيئة يشهد التاريخ من خلالها أنها لم تعد على الدولة ولا على المجتمع بالنفع، بل كانت عكس ذلك .

المبحث الأول: المجال الاجتماعي.

أما في المجال الاجتماعي فقد تأثر اليهود والنصارى بالديانة الاسلامية وقد بان من خلال إسلام بعض الفئات منهم وذلك يعود عليهم بالإيجاب بينما أثروا في المجتمع الشامي والمصري خلال عصر سلاطين المماليك وفي غالب الأمر يعود ذلك بالسلب عليه، ومن بين المظاهر الداله على ذلك اذكر منها:

1- الاستقبالات السياسية والعادات والتقاليد:

- **الاستقبالات السياسية:**

لقد اهتم اليهود والنصارى بمشاركة سلاطين المماليك في الاستقبالات السياسية لهم وإحياء الخلافة، فعلى سبيل المثال نذكر في حين استقبل السلطان بيبرس الخليفة العباسي (أبو قاسم أحمد) بمصر في عام (658هـ/1260م)، كان كل من النصارى واليهود في شوارع مصر الى جانب المسلمين يزينون الحوانيت والأسواق ويحملون كتبهم المقدسة ويتجولون في المواكب السلطانية، وفي حادثة أخرى من تلك التظاهرات الاستقبالية، اعيدت نفس الكرة في ظل عهد السلطان برقوق التي أعدها أنصار السلطان وإلى جانبهم أهل الذمة[1].

- **العادات والتقاليد:**

لقد بان تأثير أهل الذمة بشكل واضح في دولة المماليك، ففي مصر تأثر الناس بعادات وتقاليد الذميين، ذكرت المصادر التاريخية أن نساء من المسلمين في ذلك الوقت قد تأثرن بنساء يهوديات، اذ أنهن اجتنبن شراء السمك أو أكله يوم السبت أو حتى ادخاله الى البيت وذلك تقليدا باليهود وتحريمهم لصيد السمك أو أكله يوم السبت، في حين أشار المؤرخين أن بعض المسيحيين لا يشتغلون في ليلة الأحد وذلك أثر على المجتمع المصري، كما كان اليهود لا يشترون الصابون ولا يغسلون الثياب في يوم السبت لحرمة ذلك اليوم[2].

1قاسم عبده قاسم، عصر السلاطين المماليك، ط1، دار لاشروق، (1415هـ/1994م)، ص 94، قاسم عبده قاسم الأيوبيون والممالك، عين الدراسات الانسانية والاجتماعية، (د-ب)، (د-ت)، ص 151.

2 قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر من الفتح الاسلامي حتى نهاية دولة المماليك، عين الدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعيه، (د-ب)، 2003 ص143.

كان عند اليهود ظاهرة بارزة في طهي الطعام إذ أن المرأة الحائض لا تقوم بطهي الطعام ولا حتى بتكييل القمح، وذلك اعتقادًا أن النجاسة في تلك المرأة الحائض وهذا أثر على النساء المسلمات[1].

وظل الناس يتأثرون بأهل الذمة في بعض المظاهر فمثلا في خميس العهد وهو أحد مواسم أهل الكتاب الرئيسية، اعتادت النساء المسلمات ان تخرجن للسوق وتشترين البخور والخواتم الى جانب النساء النصرانيات وذلك اعتقادًا منهن أن ذلك يبعد عليهن العين والكسل وغيرها من الأمور[2].

1- الأعياد والاحتفالات:

مارس اليهود والنصارى أعيادًا واحتفالات داخل الدولة المملوكية كغيرهم من البشر وذلك لأن السلاطين منحو لهم الحرية في ممارسة تلك الأعياد الخاصة بهم والسماح لهم بممارسة شعائرهم، حتى أن بعض السلاطين شاركوا في ذلك وتبعهم كبار الموظفين في الدولة وراحوا في تبادل الهدايا في ما بينهم[3]. وهذا يوحي لنا أن السلاطين المماليك لم يقوموا بتوقيف مثل هذه الأمور التي تؤدي الى الابتعاد عن المبادئ الاسلامية.

ومن بين تلك الاعياد التي شارك فيها السلاطين والشعب الى جانبهم نجد:

في سنة 886هـ حدثت صدفة بداية السنة الهجرية (1محرم) مع رأس السنة عند النصارى أي بداية السنه القبطية، والت اليوم الثاني لها، ضف إلى ذلك بداية السنة عند اليهود أيضا، قاموا باحتفالات على اختلاف طوائفهم، وشارك أيضا اليهود والنصارى المسلمين في عيد الفطر مع العلم أنه تصادف عيد ميكائيل لدى النصارى الملكانية، اذ أن اليهود صنعوا الكعك وباعوه في عيد الفطر[4].

أما عيد النيروز الذي كان يحتفل به أهالي أهل الذمة في العهد المملوكي وهذا سمح لهم بأعمال غير قانونية داخل الدولة في ذلك الحين، بالرغم من علم السلاطين بذلك، فقام الذميين ببيع الخمور حتى أدى ذلك الى مشاركة السلاطين بشرب الخمور معهم في ذلك العيد واحتفلوا الى جانبهم، أثار أهل الذمة بعض المفاسد كنزع الثياب وعدم الاحتشام داخل المجتمع المصري، ولم يكن هذا فقط بل في عيد الشهيد الخاص بالنصارى الذي والا يوم الثامن من شهر بشنش، عمل النصارى على وضع التابوت فوق نهر النيل، فأسرع الناس من أهالي القاهرة بوضع الخيام قرب النيل وبدأ الاحتفال بركوب

1 قاسم عبده قاسم، عصر السلاطين المماليك، المرجع السابق، ص 98.

2 سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط1، دار النهضه العربية، القاهرة، 1992، ص 225.

3 قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر، السابق، ص 156.

4 قاسم عبده قاسم، المرجع نفسه، ص 157.

الخيول ومشاركة النصارى في ذلك العيد وظهر الفساد والمفسدون من مغنٍ ومغنية وأصحاب اللهو وأصحاب البغي وغيرهم يشربون الخمر الذي زاد ثمنه حتى وصل الى مائة ألف درهم حيث قال فيهم المقريزي:« ان اعتماد فلاحي شبرا دائما وفاء الحراج على ما يجمعونه من الخمر في ذلك اليوم...» [1].

2- الأعمال التخريبية:

واضافة إلى الانعكاسات السلبية التي أثارها أهل الذمة داخل المجتمع الاسلامي في وسط الدولة المملوكية، نجد غرور أهل الذمة الذي زاد في شأنهم خاصة بعد توليهم مناصب عامة في الادارة والدولة بالديار المصرية خاصة. ومن هذا المنطلق أصبح بعض الذميين يتعالون على السكان داخل البلاد المصرية، وأيضا بعض الامور التي كانت تشكل قلقًا للمصريين ومن بينها: انه في سنه 754هـ ذهب نصراني وأعلن بالقاهرة جهرًا طعنه في الديانة الإسلامية مقابل ان يقتل، وذلك ظنا منه أنه في حين قتله يكون شهيدا ومتقربًا من السيد المسيح، ونفس الشيء ظهر عند النساء في سنة 781هـ خرج جماعة من النسوة المسيحيات في القاهرة وقاموا بنفس العمل الذي قام به ذلك النصراني، وهذا طبعًا يقلق الشعب المصري من ناحية الديانة الاسلامية[2].

وعلى ذكر الديانة الاسلامية والمسلمين في بلاد الشام حمل النصارى كتبهم وشعارهم الصليب وذهبوا في ذم دين الاسلام وهم في حين يتفاخرون بدين المسيح وذلك قبل نجاح المسلمين في معركة عين جالوت، غير أن المسلمين لم يتغاضوا عن ذلك بل هاجموا كنائسهم ردًا على ذلك[3].

ان الأبنية التي شيدها النصارى واليهود كالكنائس والدير تؤثر أيضا على المسلمين في الدولة المملوكية فمثلا في لبنان كانت تقام كنائسهم في مناطق ريفية وذلك لأنها بعيدة عن الرقابة المملوكية فكانت كنائسهم تقام بشكل مستمر للكنيسة العذراء مريم أم يسوع[4].

ومن الكنائس ايضا التي شيدت في مصر نذكر منها كنيسه غبريال الملاك بالفسطاط وكنيسة الماريوحنا وكنيسه القمامه وغيرها من الكنائس التي لعبت دورا هاما في نشر الديانه المسيحيه حيث كانت تلك الكنائس والاديره عباره عن منشات تعليميه[5].

1 سعيد عاشور، المرجع السابق، ص 223.

2 قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر، المرجع السابق، ص 182.

3 فايزة حجازي، أهل الذمة في بلاد الشام في العصر الايوبي والمملوكي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، جامعه اليرموك 1987م، ص146.

4 مصطفى سبتي، لبنان في العهد المملوكي، ط1، دار المواسم، بيروت-لبنان، (1429هـ/2008م)، ص 87.

5 قاسم عبده، عصر سلاطين المماليك، المرجع السابق، ص 86.

وفي عام (754هـ) حدث تشابك بين النصارى والمسلمين وذلك من خلال ظهور رجل مسيحيين ادعى ان جده كان مسلما فقام قاضي المسلمين بحبسه بعد هذه الدعايه فعمل النصارى على اخراجه من الحبس فاخرجه بمساعده الوالي الذي اطلق الحبيس ليلا رغما عن أنف المسلمين وهذا الامر اثار في نفوس عامه المسلمين وجعلهم يستعدون لقتال الوالي فتم غلق الحوانيت والأسواق وانتهى الأمر بهزيمة الوالي[1].

ومن خلال علاقة التتار الجيدة مع النصارى والنتيجة لتلك العلاقة قام النصارى بمشاركة التتار في الاعمال التخريبيه للبلاد اذا اعتدوا على المسلمين فنهبوا اموالهم وقاموا باحراق المساجد حتى أن ابن كثير في كتابه قال :"شرعت التتار وصاحب سيس[2] في نهب الصالحيه والمسجد الاسدي ومسجد خاتون ودار الحديث الاشرقيه واحراق جامع التوبه وكان هذا من قبل الكرج والأرمن من النصارى الذين مع التتار قبلهم الله... [3].

وفي مصر أصدر السلطان الناصر قلاون مرسوم يمنع فيه تنصيب اهل الذمه في المهام الرئيسية في عام (1301م) فقام اهل الذمة من يهود ونصارى بثوران ومظاهرات هزت الكيان المصري والسوري اذ اتهم السلطان بالتعاون مع المغول الذين كانوا على ابواب دمشق ان ذاك ومن مخلفات هذه المظاهرات هي النهب وحرق الممتلكات العقاريه واحتكار تجاره البقوليات خاصه القادمه من الخارج[4].

وكما أخذ أهل الذمة في اشعال حرائق كلما أحسوا بالمعاناة ونقص الاهتمام من الدولة، ففي عهد السلطان برقوق (740هـ/1339م) قامت جماعة من اليهود في أواسط دمشق بإشعال النار، حتى أن الجامع الأموي احترق، وفي آخر الأمر تم القبض على تلك الجماعة التي كانت وراء ذلك من خلال رؤية الناس لأحد اليهود يشعل النار في يوم تعبدهم (يوم السبت) ومن هذا أصدر السلطان مرسوم بخصوص أن يدفع اليهود ألف درهم لتعمير الجامع المخرب[5].

كثرت الحرائق التي كانت سببًا في الخلافات والمشاكل بين المسلمين وأهل الذمة خاصة في مصر والقاهرة ومن الحرائق تلك نذكر الحريق الذي كان في عهد السلطان الظاهر بيبرس في حين سفره أشعل النصارى واليهود النار بواسطة الكبريت، وعند عودة السلطان الى القاهرة أمر بإشعال النار

1 قاسم عبده، أهل الذمة في مصر، المرجع السابق، ص 147.

2 سيس، وهي من الزهور الشامية والتي تقع بين انطاكيا وطرسوس، وتعد من قواعد الارض، تمت استعادتها في عهد الملك شعبان في عام(776هـ/1373م) وصارت نيابة مستقلة. أنظر: القلقشندي، (821هـ) صنع الأعشى في صناعة الانشاء، ج4، دار الكتب الخديوية، القاهرة، (1332هـ/1914م)، ص 130.

3 ابن كثير:(784هـ/1272م)، البدايه والنهاية، ج17، مكتبة المعارف، بيروت، (1408هـ/1988م)، ص 8.

4 جاك حاسون، تاريخ يهود النيل. تر: يوسف درويش، ط1-2، دار الشروق، القاهرة،(2007م-2008م)، ص 72.

5 سعيد عاشور، المرجع السابق، ص 53.

وجمع الحطب والحلفاء لحرقهم كما فعلوا بعدما كشف أمرهم طلبوا منه العفو عنهم وتوسط لهم فارس الدين أقطاي فعفى عنهم مقابل أن يدفعوا أموالا إلى بيت المال وكان مقدارها حوالي 50 ألف دينار ووعدهم له بعدم تكرار ما حدث[1].

وفي عام (721هـ/1321م) نشب حريق آخر في القاهرة وبدأ بدار الوكالة واحترقت المتاجر الخاصة بالزيوت والعسل وأصناف أخرى، أدى ذلك لاعتقاد الناس بأن ذلك وقع بالخطأ لكن لسوء الحظ أعيد حريق آخر في اليوم الآخر فاحترقت ديار المسلمين حوالي 30 دارا وما يقارب 100 مسكن وتوالت الحرائق حتى أنها أنهكت الناس بحيث كلما هرعوا لإخماد النار ظهر حريق آخر فبحث الناس مع السلطان في من كان وراء ذلك فلاحظوا أن الحريق كان بالأماكن والمؤسسات التعليمية والدينية كالجوامع والمساجد والمدارس وفي آخر المطاف قبض على جماعة من النصارى يرمون النار في بعض الدور، واعترفت جماعة أخرى من طائفة نصارى الروم الملكانية أنهم قاموا بذلك ردًا على هدم كنائسهم فتم اعدامهم بعد ذلك[2].

وفي موقعة أخرى أخذت جماعة من النصارى في القاهرة أمام كنيسة القيامة في عام (886هـ/1461م) في لبس الشاش وخاصة كبيرهم وهو يجلس على كرسي أعد خصيصًا له أمر بضرب الناقوس في حين الآذان عند المسلمين، ونتج عن هذا أن المسلمين لم يسمعوا الآذان لأداء صلاتهم، وذلك لكي يظهروا الديانة النصرانية أمام الدين الاسلامي ولما عارضهم أحد المسلمين قاموا بقتله[3].

وبالتالي نقول أن الدولة المملوكية واجهت بعض الصعوبات للتحكم في أهل الذمة من خلال احداثهم لبعض المفاسد والتي تعود على المسلمين بالسلب وحتى على السلاطين أنفسهم وذلك جعلها لا تستطيع السيطرة عليهم في أمور كثيرة خاصة ما يمس الديانة الاسلامية والمسلمين.

المبحث الثاني: الجانب العلمي والثقافي

لقد عرفت الدولة المملوكية في مصر والشام تطورًا بارزًا في الجانب العلمي، وذلك من خلال نشاطات أهل العلم والمعرفة، وبالتحدث عن هؤلاء نجد أهل الهمم من المسلمين وغير المسلمين خاصة النصارى واليهود، اذ كانت لهم بصمة في هذا المجال حيث تلقوا العلوم في مدارس أو حتى كتاتيب

1 جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام 1322هـ، مؤسسة الهنداوي، القاهرة، 2012، ص 150.

2 اسماعيل الكاشف، مصر الاسلامية وأهل الذمة، الهيئة العامة المصرية للكتاب، (د-ب)، 1993هـ، ص 115. الصفدي (764هـ/1362م) الوافي بالوفيات ج4، ط2، دار فرانزشتاين، (د-ب)، 1411هـ/1991م، ص368، علي ابراهيم حسن، تاريخ المماليك البرجية، مكتبة النهضة المصرية، (د-ب)، 1944م ص133.

3 فايزه حجازي، المرجع السابق، ص 153.

إبان ذلك العصر وهذا جعل من السلاطين يعتمدون عليهم، وبالتالي كان لهم الأثر داخل الدولة وتمثل ذلك في:

1. حركة الترجمة:

لقد كان كل من القراؤون والربانيون من طائفة اليهود يتنافسون على من يقوم بتفسير الكتاب المقدس، وهذه تعتبر خطوة جيدة جعلت من النشاط الأدبي يسموا في العهد المملوكي في حين أن تلك النشاطات اللاهوتية كتبت باللغة العبرية مع العلم أن اللغة العربية كانت هي المتداولة في حياتهم اليومية، أي يتحدثون بها في الغالب، أما اللغة العبرية فهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتراث الديني والعقائدي، كما استخدم اليهود اللغة العربية في كتاباتهم وحركة الترجمة هذه لم تقتصر على يهود مصر فقط بل على يهود العالم كلهم آنذاك[1].

لقد كان في العهد المملوكي لكل سلطان مترجم خاص به يصاحبه في معاملاته الدبلوماسية حيث أن الرحالة ميشولام تحدث عن مترجم يهودي من اسبانيا كان يعرف سبع لغات وهي العربية والايطالية والتركية واليونانية وأيضا الألمانية والفرنسية وضف الى هذا كله اللغة العبرية[2].

ولعل السبب الرئيسي في اتخاذ اللغة العربية في أغلب مؤلفاتهم خاصة في تفسير تلموذ لدى اليهود هو أن تصل للجمهور من شتى أنواع الناس تلك الشروحات والتفسيرات، وخير دليل على هذا هو أن وثائق الجينزا كتبت باللغة العربية في حروف عبرية التي هي لغة اليهود[3] وأيضا من أسباب استخدام اللغة العربية في مؤلفاتهم هو أن العربية قليلة الجهد على عكس اللغات الأخرى وأنها كتبت في أغلب المؤلفات لكن لم تكن تحمل أي خلفيات ايديولوجية على عكس الشعر مثلا، وضف إلى ذلك في أنها سيدة اللغات في حركة الترجمة التي عملت على ايصال المعرفة من الحضارات القديمة الى اللغة العربية[4].

لقد كان للربانيين حظ اكثر في التنافس وعلى الرغم من هذا فإن الغرض من هذه الترجمة هو تفسير الكتاب المقدس وشرحه لكل الطوائف وجميع أشكال الناس لفهمه، كان للإنتاج الأدبي حظ وفير في التقدم والتطور في العهد المملوكي لاسيما أن اليهود همهم الوحيد هو اللغة العربية التي كانت سائدة آنذاك[5].

1 قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، المرجع السابق، ص 107.

2 قاسم عبده قاسم، اليهود في مصر، ط1، دار الشروق، القاهرة، (1413هـ/1993م)، ص 95.

3 قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، المرجع نفسه، ص 107.

4 قاسم عبده قاسم،عصر سلاطين المماليك، المرجع نفسه، ص 107-108.

5 ميساء تحسين، صورة اليهود في شعر العصر المملوكي الأول، مذكره لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية، كلية الدراسات العليا، نابلس-فلسطين، 2013 ص 53.

ومن المفكرين الذين ظهروا في العهد المملوكي من اهل الذمة في مصر نذكر من طائفة القرائين من اليهود، التي خرج منها مفكرين من أمثال: صوميل بن موسى المغربي، الذي ظهر في القرن (8هـ/14م) وفي القرن(9هـ/15م) نذكر المفكر اليهودي الذي لم تذكر المصادر التاريخيه اسمه ألف في كتب الحوليات التي تتحدث عن التوراة[1]، ونجد أيضا اليهودي عبد الكافي العناني توفي (844هـ) واسمه الكامل ابراهيم بن فرج الله عبد الكافي العناني، كان يجمع بين الطب والمعرفة بأصول الديانة اليهودية التي ظهرت في مؤلفاته وذلك حسب السخاوي الذي قال فيه: «ولم يخلف بعده من يهود مصر مثله كثرة في حفظ نصوص التوراة وكتب الأنبياء وتمسكه في دينه مع حسن علاجه لمعرفته بالطب وتكسبه به، وكان يقرأ نبوة النبي ﷺ ويجهر بأنه رسول إلى العرب ويقول في المسيح عليه السلام أنه صديق خلافا لما يقوله اليهود لعنهم الله...» [2].

أما بالنسبة للنصارى فقد كانوا عنصرا بارزا في الحياة الثقافية خاصة في مصر حيث أنهم ركزوا على الأمور الدينية في أغلب مؤلفاتهم في العصر المملوكي اذ أن مؤلفاتهم عبارة عن ردود على الديانات الأخرى كديانة الاسلام أو حتى الدفاع عن مذهبهم أمام المذاهب الأخرى، أي عبارة عن نقاشات وردود كتابية فيما بينهم. لقد ألف بعض النصارى مؤلفات باللغة القبطية مثل المؤرخ المسيحي أبو اسحاق ابن فخر الدولة أبو الفضل ابن ابي البشر العسال من أسرة العسال، كما ألف أخوه أسد أبو الفرج هبة الله وصفي أبو الفضل ماجد في الرد على تقي الدين ابن تيمية، وكذا ابن الدهيري المصري القبطي الذي عاش في القرن (7هـ/13م)، عرف بكتاباته في أصول اللغة القبطية وذكرت لنا المصادر التاريخية من المؤلفين المسيحيين الذين دافعوا عن المذهب اليعقوبي أمام المذاهب الأخرى في الديانة المسيحية وهو أسقف مليج الذي ألف كتب عديدة في هذا الجانب وليس هذا فقط بل كان من المدافعين عن المسيحية أمام الاسلام والمسلمين، فكانت مؤلفاته موازية للقرن (8هـ/14م) [3].

وكما عرف ابن العميد النصراني الذي توفي في 1383م بتأليفه للكتب التاريخية منها مختصر لتاريخ الطبري وعليه تتمة حتى عهد معز أيبك وهو من المؤرخين الذين عايشوا العهد المملوكي[4].

1 قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، المرجع السابق، ص 108.

2 السخاوي، (903هـ/1496م) اللامع لأهل القرن التاسع،ج1، ط1، دار الجيل، بيروت، (1412هـ/1992م)، ص 117.

3 قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، المرجع نفسه، ص 109.

4 عمار محمد النهار، دور أهل الذمة والجاليات الغربيه ونشاطهم في عصر المماليك، مجلة الدراسات التاريخية، العددان:125،126 كانون الثاني حزيران 2014م ص262.

وفي مجال كتب التاريخ العام نجد أبو شكر بطرس ابن الراهب القبطي توفي (681هـ/1222م) وشملت مؤلفاته القضاء بين بني اسرائيل، وكذلك تحدث عن ملوك الروم وشرح مجيء المسيح ولا ننسى اهتمامه بسير البطاركة والخلفاء الراشدين حتى أيامه[1].

وبالتالي نقول أن النصارى واليهود في مصر خلال عهد المماليك ساهموا في تنشيط النهضة الفكرية في ذلك الحين، فقد برز منهم مفكرين وعلماء ومؤلفين رغم الاختلافات الدينية التي كانت بينهم وبين المسلمين، ومع ذلك كانت العلاقات بين أهل الذمة والمسلمين في المجال العلمي والثقافي جيدة تارة وتارة عكس ذلك بحيث كل شعب متمسك بدينه ويقوم بتقديم حجج وبراهين لإثبات أصول دينه، باعتبار اللغة العربية هي أساس تلك المؤلفات، ومع هذا عاشت تلك الطوائف في أواسط المسلمين بشروط فرضتها الدوله المملوكية، بل في بعض الأحيان دافع بعض المفكرين من أمثال الشيخ ابن دقيق العميد عن مسألة تهديم الكنائس بعد ما أفتى فيها علماء وفقهاء، فأخذ في الذود عنهم حسب أصول الشريعة الاسلامية التي تقول أنه لا يمكن الاعتداء على ممتلكات الآخرين وحدث هذا في سنة (800هـ/1300م)[2].

2. المؤسسات العلمية:

أ- المدارس والمكاتب:

لقد اهتم أهل الذمة في عصر المماليك بالمؤسسات التعليمية لتكوين بنية مثقفة وواعية في المجتمع، ومن بين هذه المؤسسات التي شيدها النصارى واليهود وهي المدارس، فالمدرسة آنذاك كانت عبارة عن أماكن لتعليم الشعائر الدينية كما تم اتخاذها كمسجد لإقامة الصلوات الخاصة بالذميين[3].

وبالنسبة لليهود وجدت لديهم مكاتب[4]، وذلك من خلال الاحصاءات التاريخية لمدينة القدس وهي أماكن خاصة بتعليمهم وحفظ التوراة والتركيز على الأمور الدينية لديهم وهي تعمل عمل المدارس[5].

1 ليلى نافع، الحياة الثقافية في مصر في العهد المملوكي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الاسلام، كلية الأدب، جامعة مصراته، ليبيا، 2013-2014م ص 45.

2 قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، المرجع السابق، ص 109.

3 علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ط1، دار الفكر، القاهرة، 2001م، ص 163.

4 المكاتب، وهي تسمى الان بالكتاتيب، عملها كعامل المدارس وهي خطوة أولى لمراحل تعليم الصبيان عند النصارى. أنظر: علي السيد علي، المرجع نفسه ص157.

5 علي السيد، المرجع نفسه، ص 160.

إن الاديرة والكنائس التي كانت قد أنشئت من طرف النصارى واليهود في لبنان عبارة عن أماكن للعبادة، فشيدوا إلى جانبها مدارس لتعليم وتثقيف أبناء الطبقة للذميين، اذا كان المعلمون فيها من رهبان وقسيسين[1].

ب- المكتبات:

لقد أنشأ أهل الذمة مجموعة من المكاتب داخل الدولة المملوكية، فمنها المكتبات العامة والمكتبات الخاصة، التي كانت بدورها تحفظ فيها أمهات الكتب والمخطوطات النفيسة لآلاف السنين.

- **المكتبات العامة:**

مكتبة القبر المقدس: وهي مكتبة ثمينة يعود انشاؤها الى الروم الأرثودكس، قاموا ببنائها منذ أبعد القرون، فوجدت بها كتب عظيمة وأيضًا في نفس السياق عثر على مكتبة الرهبان الفرنسيكان[2] في العهد المملوكي، إذ قام أحد الباحثين بوصفها بأنها أغنى مكتبات العالم وذلك لأنها تحتوي على وثائق عديدة في الأراضي المقدسة وذكرت المصادر أن الرهبان حافظوا على تلك الوثائق مدة سبعة قرون من الزمن، بغض النظر عن حفاظ علماء العصور الحديثة عليها حتى أنهم وضعوا لها فهرس وتمت ترجمتها الى اللغة الايطالية بعدما كانت باللغة العربية[3].

اضافة الى تلك المكتبات نجد مكتبة دير السيدة صيدنايا بالقرب من دمشق، عثر فيها على كتب ومخطوطات يعود زمنها الى مئات السنين تناولت موضوعات الأدب والطب وغيرها من العلوم الأخرى، وبالنسبة للمكتبات القديمة في المشرق نجد مكتبة دير الكرمل في حيفا التي يعود تأسيسها الى القرن (6هـ/13م)، وكانت في الشام بالضبط في بيت المقدس، قيل عنها أنها من أغنى مكتبات العالم، بها حوالي أربع مائة وأربعون ألف وثيقة خاصة بالرهبان، وان أقدم تاريخ لها يعود لعهد السلطان الأشرف شعبان بن الحسين (764هـ-778هـ/1363م-1377م)[4].

1 مصطفى سبتي، المرجع السابق، ص 87.

2 رهبان الفرنسيكان، أسسها الفرنسي الأسيسي (1182م-1226م) والذي نشأ في اقليم أسيسي(Asisi) في شمال ايطاليا، كان من الدعاة لحب المسيح عليه السلام والزهد، تجمع حوله الناس حتى شكلوا جماعة ديرية على نسق جماعة الدومينيكانية وفي عام (620هـ/1222م) تم اصدار مرسوم من البابا هونريوس الثالث باعترافه بهم كرهبان فرنسيكان توسعوا في الأراضي المقدسة وكما سمح لهم سلطان دمشق بأمر من حاكم مصر الكامل بالاقامة في جبل صهيون. أنظر: علي السيد علي، المرجع السابق، ص 92.

3 علي السيد، المرجع نفسه، ص 171.

4 علي السيد، المرجع نفسه، ص 171.

- **المكتبات الخاصة:**

بلغ اهتمام العلماء والباحثين بالكتب النادرة والبحث عنها حتى أنهم بحثو عنها عند النصارى واليهود بالرغم من اختلاف الديانات فاكتشفوا إلى جانب المكتبات العامة أن هناك مكتبات خاصة بأهل الذمة في العهد المملوكي، اذ أن الأفراد الأثرياء قاموا بإنشائها وهذا جعل هؤلاء الباحثين يهرعون لنسخ تلك المخطوطات النادرة وان المصادر التاريخية لم تذكر لنا أي معلومة عن أصحابها إلا أنها أشارت لوجودها فقط في بعض الكتب[1].

عندما نتحدث عن المكتبات لابد لنا أن نشير للكتب التي حفظها اليهود والنصارى في مكتباتهم، ففي كنيسة "غزارا" التي يعود تاريخ بنائها الى عام (882هـ) وبنيت على أنقاض كنيسة قبطية والتي حملت الوثائق التاريخية والأوراق المهمة المتعلقة بتاريخ اليهود في مصر وفلسطين من عهود الفتح الاسلامي حتى عهد المماليك، اذ أن أقدم وثيقة لها تعود إلى عام (750هـ) وأحدث وثيقة تعود للقرن الخامس عشر ميلادي والتاسع هجري[2].

3.الطب والأطباء:

لقد اهتم المماليك بالطب والأطباء وحتى أنهم اهتموا بأطباء اليهود والنصارى وقربوهم اليهم ونذكر فئة منهم:

- **يعقوب ابن اسماعيل:** الطبيب اليهودي يعقوب ابن اسماعيل ابن غانم السامري (681هـ/1382م) الذي تلقى تعليم الطب من علماء وأطباء في دمشق.
- **السديد الدمياطي:** توفي (743هـ/1342م) الذي تلقى علمه من العالم النابلسي وكان في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (709هـ-741هـ/1309م-1341م) وكان من أمهر أطباء الخاصين به[3]، وتقول المصادر التاريخية بأن السلطان يأخذ برأيه وهذا حسب ما قاله ابن الثغري بردي "فإذا السلطان عارض من مرض أمر بإحضار الأطباء وكان السديد الدمياطي يتقدمهم ويقوم بفحصه وجس نبضه، والكشف عن مرضه في حين يتولى رئيس الأطباء السؤال عن الأغراض بحضوره يتشاور مع الأطباء للوصول الى الداء ووصف الدواء وكان السلطان يعتمد عليه ويأخذ برأيه دون الكل..."[4].

1 علي السيد، المرجع السابق، ص 172.

2 جاك تاجر، المرجع السابق، ص 55.

3 اسراء فاضل، أهل الذمة وإسهاماتهم الطبية في دولة المماليك مجلة كلية التربية الأساسية والإنسانية، جامعة بابل، العدد 43،(د-ب)، 2019، ص 2220.

4 ابن الثغري بردي، (874هـ/1470م)، المذهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ج5، ط1. تر: جلال بن احمد وسعيد بن علي، تح نبيل محمد عبد العزيز، مركز تحقيق التراث، القاهرة، 1988، ص 384.

- **الطبيب إبراهيم:** ابن الوحش ابن أبي خليفة علم الدين ابن رشيد وصل الى مكانة رئيس الأطباء في مصر والشام، وهو أول من صنع الشراب الطري والذي عالج الظاهر بيبرس وأخذ مبلغا من المال أعطاه له الأمراء حوالي 300 ألف دينار وتوفي عام (728هـ/1308م) [1].
- **الطبيب علم الدين توما:** ابن ابراهيم الشوبكي كانت له مصنفات في مجال الطب وهي "اختصاص مسائل حنين" وكان من الأطباء المعروفين لدى السلطان ناصر بن قلاون، وبقي في خدمته حتى مات في القاهرة عام (724هـ/1370م).
- **الطبيب داود العطار:** ظهر في القرن (7هـ/14م) واسمه الكامل داوود العطار ابن أبي نصر عرف باسم الكوهين العطار الاسرائيلي، عرف بأدويته التي تعالج الأبدان وكان له كتاب اسمه "مناهج الدكان ودستور الاعيان والتراكيب الأدوية النافعة للأبدان" كان كتابه هذا عبارة عن موسوعة صيدلانية جمعت فيها معلومات في مجال الصيدلة[2].

وتجدر الاشارة الى أن مجموعة من النصارى الكبار في الأردن عملوا بالعلوم والأدب فنتج منهم الكيميائيون والأطباء، وظهر أيضا كتاب في عهد الناصر أحمد بن مُحَمَّد قلاون، فأخذ السلطان بتقريبهم اليه[3].

أما يهود السامرة فنجد منهم مُحَمَّد بن عبد الله السعدي أمين الدولة، عاش بدمشق كما عرف بعمله في مجال الطب (815هـ/1412م) [4].

ونجد من النصارى الذين برزوا في مجال الطب أمثال:

- **ابن القف الكركي:** الذي تلقى علمه من الطبيب ابن أبي الصبيحة (68هـ/1269م) وألف له كتاب في مجال الطب بعنوان "الشافي في الطب" يتألف من 12 مقال[5].
- **النصراني سليمان** ابن داود ابن دمشق عرف بعلمه الممتاز في الطب ومعالجته للأمراض المستعصية، حيث أن بعض المصادر التاريخية تذكر أنه عالج شخصا من بني صرصر الذي كشف له عن مرضه الذي كان يعاوده من فترة إلى أخرى وكما قام بمعالجة نائب طرابلس الذي كان به مرض مستعصي فلم يفهمه الأطباء، وتلقى مبلغ مالي مقابل ذلك[6]. لقد عرف أيضا بجدارته في

1 فايز حجازي، المرجع السابق، ص 252.

2 فايز حجازي، المرجع نفسه، ص 151.

3 يوسف غوانمة، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ط2، دار الفكر، عمان، 1982م، ص 13.

4 فايز حجازي، المرجع نفسه، ص 151.

5 فايز حجازي، المرجع نفسه، ص 251.

6 اسراء فاضل، المرجع السابق، ص 2220،2222.

هذا المجال كما سبق لنا أن ذكرنا، ضف الى ذلك توليه رئاسة الطب ولكنه عزل فيما بعد بسبب بعض الوشاة منه وذلك لقوة نفسه وجرأته الكبيرة ومات بدمشق عام (732هـ/1332م) [1].

لقد كان الأطباء من النصارى واليهود لهم حدة وذكاء بارز في عملهم، وكانت لهم نظرة حادة في الكشف عن الأمراض ووصف الأدوية اللازمة لكل مريض، حتى تحصلوا على ثقة السلاطين وأعيان الدولة وكذلك عامة الناس وهذه المكانة التي حصل عليها الذميين لدى السلاطين جعلتهم يصلون الى مناصب عالية في كل من مصر والشام مثل: منصب رئيس الأطباء خلال عصر السلاطين المماليك، ثم تقديمهم لمهمة التدريس في المدارس والمشافي بالقاهرة وبلاد الشام أشهرها "البيمارستان"[2] قام بإنشائها السلطان منصور بن قلاون عام (673هـ/1281م) وبنى بجانبها القبة وأوقف عليها أوقاف عديدة ومن الأطباء الذين اطلقت عليهم اسم أو منصب رئيس الأطباء من أمثال ابن المغربي[3].[4]

أشارت بعض المصادر التاريخية الى الألقاب التي كانت تطلق على أهل الذمة الذين نشطوا في الجانب العلمي والثقافي وهذه الألقاب كانت تطلق عليهم لخبرتهم في هذا المجال ومكانتهم داخل المجتمع ومن بين هذه الألقاب نجد:

لقب الشيخ مثل الشيخ الشمسي ولقب الشيخ الصفي والشيخ الموفق وعلى حسب الوثائق التاريخية وجدنا أن الألف واللام تنزع في حالة اسلام أحدهم فيلقب الشيخ الشمسي بعد اسلامه بشيخ الشمسي، كما نجد كلمة الدين في ظاهر هذه الألقاب مثل: الشيخ الشمسي نقول شمس الدين وغيرها من الألقاب.[5]

رغم العدد القليل لأهل الذمة داخل الدولة المملوكية، إلا أنهم ساهموا في تطوير الحياة العلمية كما أنهم أثروا على الحياة الاجتماعية للمسلمين وتلك التأثيرات لم تكن تبشر بالإيجاب بل كانت عكس ذلك كما سبق لنا أن تطرقنا لتلك النتائج، وذلك كله يعود لتلك الحقوق والحريات الدينية والمدنية وتمتعهم بالتسامح الديني في أواسط المسلمين باعتبارهم جزء مرتبط بالكل الاسلامي.

---

1 فايز حجازي، المرجع السابق، ص 251.

2 البيمارستانات، أو البيمارستان وهي تلك المنشآت المدنية التي حققت منافع عامة للناس اذ توفر لهم العلاج ووسائله، وأول خليفة في الاسلام أنشأها هو الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك وسماها في بداية الأمر دار المرضى، واهتم بها المماليك ايضا لتقديم المنفعة للشعب والسلاطين ايضا. أنظر: غوانمة، المرجع السابق ص166.

3 ابن المغربي، هو ابن المغربي الاشبيلي واسمه الكامل ذاك هو عند اسلامه، أطلق على نفسه اسم أحمد وتولى رئاسة الأطباء في كل من مصر والشام. أنظر: المقريزي (854هـ/1250م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان (1418هـ/1997م)، ص 333.

4 إسراء فاضل، المرجع السابق، ص 2222،2220.

5 فايز حجازي، المرجع نفسه، ص 260.

خاتمة

خاتمة

لقد حرص سلاطين الدولة المملوكية على تقريب أهل الذمه منهم، باعتبارهم عنصرًا فعالًا في الدولة ولاسيما في الأمور الادارية والدواوين والمالية، وقد أدى هذا الاهتمام الناجم عن أرباب الدولة (سلاطين وحكام الدولة) إلى انحلال الطوائف الدينية تلك بين المسلمين بشكل كبير، وقيام الدولة بحماية رعاياها (النصارى واليهود) تحت شعار عقد الذمة الذي فرضته الشريعة الاسلامية.

مارس أهل الذمه من اليهود والنصار كافة أنواع النشاطات الاقتصادية في مصر والشام خلال ذلك العصر دون عقبات، وكما أشارت لنا المصادر أنهم امتلكوا عقارات في الدولة وساهموا في عملية البيع والشراء داخل وخارج الدولة المملوكية.

كان من الطبيعي أن يتأقلم أهل الذمة مع الوضع الجتماعي، وظهر ذلك من خلال تأثرهم بالدين الاسلامي وتأثيرهم على المجتمعات الشامية والمصرية من خلال العادات والتقاليد والأعياد وغيرها من المظاهر الدالة على ذلك ولا ننسى الأعمال التخريبية لهم كالحرائق والإضرابات والتشويش على المسلمين وغيرها من الأمور غير المرغوب فيها الناتجة عن الإضطهادات والمعاناة التي واجهوها ولو كانت بسيطة في نظر السلاطين والمسلمين كمسألة هدم الكنائس والدير والمعابد والضرائب المفروضة عليهم.

ظهر بعض اليهود والنصارى على الساحة الثقافية وبرزت أسماءً عديدة في ميادين الطب والأدب والترجمة وغيرهم، وهذا يؤكد مدى تمتع أهل الذمة بحريات داخل الدولة المملوكية حيث تمكنوا من استخدام مواهبهم في خدمة المجتمع المصري والشامي الذي عاشوا فيه.

ملاحق

مرسوم السلطان الغوري[1]

(١) بسمله ... المرسوم بالامر الشريف العالى المولوى السلطانى الملكي الاشرفى السيفى اعلاه الله تعالى وشرفه وانفذه وصرفه (٢) ان لا يكرهوا جماعة الرهبان النصارى والرهبانيات (هكذا) الملكيين واليعاقبة بموجب ولا بخفر ولا بظلم عند دخولهم قمامة القدس الشريف اسوة رهبان (٣) الكرج والحبوش ولا عند دخولهم الى مينا يافا ولا عند خروجهم من يافا ولا فى مدينة غزه ولا فى رملة لدّ الواردين من الرهبان والرهبانات (هكذا) من المذكورين (٤) فى البرّ والبحر وكل ناحية لزيارة بيت المقدس مستمر حكم ذلك من تقادم الرهبان والرهبانات من طايفة الروم والقبط من الموجب بالاعمال المذكورة (٦) فى البسط والموسم على جارى عادتهم ومنع من يعارضهم فى ذلك حملا فى ذلك على ما بيدهم من المربعات الشريفة السالفة والمربع الشريف الاشرفى الذى بيدهم (٧) عند انهاءهم انهم رهبان واهل ذمة وسنقطعين وان بيدهم عهدات وسجلات ومربعات شريفة شاهدة لهم بذلك وسالوا كتابة هذا المرسوم الشريف (٨) بذلك جميعه وان ينقش شرح ذلك برخامة وتلصق بباب القمامة وليصير ذلك تذكرة بعدل مولانا المقام الشريف عزّ نصره على ممر الدهور والايام صدقة عليهم عند تمثل القس صفرونس[1] (٩) الراهب الملكى ورقعته لدى المواقف الشريفة فرسم لهم بذلك بمقتضى القصة المرفوعة عن الرهبان والرهبانات المشمولة بالخط الشريف حسب الامر الشريف شرفه الله تعالى وعظمه (١٠) بتاريخ اليوم المبارك التاسع من شهر الله المحرم الحرام سنة تسع عشرة وتسعمائة والحمد لله وحده مُصَلِّيًا ومسَلِّمًا على مَن لاَ نَبِيَّ بَعْدَهُ .

ملحق يوضح مرسوم السلطان الغوري (919هـ/1518م) الذي نقش أمام باب كنيسة القيامة والذي ينص على عدم التعرض للرهبان من النصارى الملكانية أو اليعقابة لأنهم من الذميين سواء دخلو كنيسة القيامة أو حتى التعرض لهم في شتى المجالات.[1]

1 أنظر: أحمد دراج، المرجع السابق، ص 114، 115.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر:

1- القرآن الكريم.

2- إبن الحاج، أبو عبد الله مُحَمَّد بن العبدري الفارسي، المتوفى (737هـ/1336م)، المدخل إلى الشرع الشريف.

3- إبن دقماق، صارم الدين ابراهيم بن مُحَمَّد بن أيدر العلامي، المتوفى(809هـ/1406م) الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج5، ط1، المطبعة الأميرية، (د-ت).

4- ابن فارس أبو الحسن أحمد زكرياء، المتوفى (295هـ/1004م)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون دار الفكر، (د-ب)، 1979م.

5- ابن قاضي، تقي الدين أبو بكر شبهة، المتوفى(851هـ/1448م)، تاريخ ابن القاضي شبهة، تحقيق، عدنان درويش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1997.

6- ابن قديم الجوزي، شمس الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر، المتوفى(751هـ/1275م) أحكام أهل الذمة، تحقيق، أبي براء البكري وأبي أحمد العاروي، دار رمادي للنشر، السعودية، (1418هـ/1997م).

7- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي، المتوفى(784هـ/1272م)، البداية والنهاية، ج14 ط1، مكتبة المعرفة، بيروت، (1408هـ/1988م).

8- ابن منظور، جمال الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي، المتوفى(711هـ/1311م)، لسان العرب، ط1، دار المعارف، (د-ب)، (د-ت).

9- أبو الفداء المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين، المتوفى(732هـ/1331م)،تقويم البلدان ج1 ط1، دار المصادر، بيروت، 1830م.

10- أبو المحاسن، جمال الدين الثغري بردي، المتوفى(874هـ/1469م) المنهل الصافي والمتوفى بعد الوافي، ترجمة، جلال الدين أحمد وسعيد ابن علي، تحقيق، نبيل مُحَمَّد عبد العزيز، ج5، ط1، مركز تحقيق التراث، 1984م.

11- الادريسي، أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله بن ادريس، المتوفى (560هـ/1164م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ج1، كتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (1422هـ/2002م)

12- السخاوي، مُحَمَّد عبد الرحمان مُحَمَّد بن أبي بكر بن عثمان، المتوفى(903هـ/1496م)، التبر المسبوك في ذيل السلوك، ج1،ط1، مطبعة الأميرية، مصر، 1892م.

13- الشهرستاني، أبو الفتح مُحَمَّد بن عبد الكريم بن أحمد، المتوفى(548هـ/1153م)، الملل والنحل، تحقيق، مُحَمَّد الوكيل، ج2، الاتحاد العربي للطباعة، القاهرة، (1337هـ/1968م).

14- الصفدي، صلاح خليل ابن أبيك بن عبد الله الصفدي، المتوفى(310هـ/922م)، تاريخ الطبري، تحقيق، مُحَمَّد أبو الفضل ابراهيم، ج5، ط1، دار المعارف، القاهرة، (د-ت).

15- الطبري، أبو جعفر مُحَمَّد بن جرير، المتوفى(310هـ/922م)، تاريخ الطبري، تحقيق، مُحَمَّد أبو الفضل ابراهيم، ج5 ط1، دار المعارف، القاهرة،(د-ت).

16- الفيروز أبادي، مجد الدين بن يعقوب الفيروز أبادي الشيرازي، المتوفى(769هـ/1362م)، قاموس المحيط ج4،ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (1400هـ/1980م).

17- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الله القلقشندي، المتوفى (821هـ/1418م)، صبح الأعشى في صناعة الانشاء، تحقيق، مُحَمَّد مصطفى زياد، ج2، مطبعة اللجنة والتأليف، (د-ب)، (1331هـ/1913م).

- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الله القلقشندي، المتوفى (821هـ/1418م)، صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ج3، دار الكتب الخديوية، القاهرة، (1332هـ/1914م).
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الله القلقشندي، المتوفى (821هـ/1418م)، صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ج4، دار الكتب الخديوية، القاهرة، (1332هـ/1914م).
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الله القلقشندي، المتوفى (821هـ/1418م)، صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ج5، دار الكتب الخديوية، القاهرة، (1332هـ/1914م).
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الله القلقشندي، المتوفى (821هـ/1418م)، صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ج13، دار الكتب الخديوية، القاهرة، (1332هـ/1914م).

18- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، المتوفى (854هـ/1250م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، مُحَمَّد عبد القادر، غطا، ج1،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت-لبنان، (1418هـ/1997م).

- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، المتوفى (854هـ/1250م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، مُحَمَّد مصطفى زياد،ج2،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت-لبنان، (1418هـ/1997م).
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، المتوفى (854هـ/1250م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، مُحَمَّد مصطفى زياد، ج3،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت-لبنان، (1418هـ/1997م).
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، المتوفى (854هـ/1250م)، تاريخ اليهود وآثارهم في مصر، تحقيق عبد المجيد دباب، دار الفضيلة، القاهرة، ('د-ت).

19- ياقوت الحموي، شهاب الدين، بن عبد الله الحموي، المتوفى(626هـ/1228م)، معجم البلدان، ج1، ط1، دار الصادر، بيروت، (1397هـ/1977م).

- ياقوت الحموي، شهاب الدين بن عبد الله الحموي، المتوفى(626هـ/1228م)، معجم البلدان، ج2 ط1، دار الصادر، بيروت، (1397هـ/1977م).
- ياقوت الحموي، شهاب الدين بن عبد الله الحموي، المتوفى(626هـ/1228م)، معجم البلدان، ج4 ط1، دار الصادر، بيروت، (1397هـ/1977م).
- ياقوت الحموي، شهاب الدين بن عبد الله الحموي، المتوفى(626هـ/1228م)، معجم البلدان، ج5 ط1، دار الصادر، بيروت، (1397هـ/1977م).

قائمة المراجع العربية:

1- الأشقر مُحَمَّد، الوزارة والوزراء في عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2011.

2- باشا حسن، الفنون الاسلامية والوظائف والآثار العربية، ج2، ط1، دار النهظة العربية، القاهرة، 1966م.

3- البخيت مُحَمَّد، مملكة الكرك في العهد المملوكي، ط1، الهيئة العلمية لمكتبة الاسكندرية، الأردن، 1976م.

4- البهوتي، كشاف القناع عن متن الأقناع، تحقيق، مُحَمَّد الأمين الضناوي، عالم الكتاب، بيروت-لبنان (1417هـ/1997م).

5- حسن علي ابراهيم، تاريخ المماليك البحرية في عصر الناصر مُحَمَّد بوجه خاص، مكتبة المصرية، (د-ب) 1944م.

- حسن علي ابراهيم، تاريخ المماليك البحرية، مكتبة الهيئة المصرية، (د-ب)، 1944م.

6- الخربوطي مصطفى، الاسلام وأهل الذمة، شركة الاعلانات الشرقية، القاهرة، 1989م.

7- دراج أحمد، المماليك والفرنج، دار الفكر العربي، القاهرة، 1961م.

- دراج أحمد، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، المكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، 1968م.

8- الزيات حبيب، الديارات النصرانية في الاسلام، ط4، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (1429هـ/2008م).

9- السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1986م.

10- كاشف اسماعيل، مصر الاسلامية وأهل الذمة، الهيئة العامة المصرية للكتاب، (د-ب)، 1993م.

11- عاشور عبد الفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، ط2، دار النهضة العربية، بيروت-القاهرة، 1976م.

- عاشور عبد الفتاح، المجتمع المصري في عصر السلاطين المماليك، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة 1992م.

12- العلبني أكرم حسن، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ط1، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق-سوريا (1402هـ/1992م).

13- الغزي بن الحلبي، نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية، حلب، (د-ت).

14- غوانمة يوسف درويش، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ط2، دار الفكر، عمان، 1982م.

- غوانمة يوسف درويش، تاريخ نيابة بيت المقدس، دار الحياة الأردن، عمان، 1992م.

15- فتاح عرفان، النصرانية كنائسها وأصولها وعقائدها، ط1، دار عمار، عمان-الأردن، (1460هـ/2000م).

قاسم عبده، اليهود في مصر، ط1، دار الشروق، القاهرة، (1413هـ/1993م).

- قاسم عبده، الأيوبيون والمماليك، عين الدراسات الانسانية والاجتماعية، (د-ب)، (د-ت).
- قاسم عبده، عصر سلاطين المماليك، ط1، دار الشروق، (1415هـ/1994م).
- قاسم عبده، أهل الذمة في مصر من الفتح الاسلامي حتى نهاية دولة المماليك، عين الدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، (د-ب)، 2003م.

16- القاسمي مُحَمَّد وآخرون، قاموس الصناعات الشامية، تحقيق: ظافر القاسمي، ط1، دار ملاس للدراسات والترجمة والنشر، (د-ب)، 1988م.

17- نجيب عامر، الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي، ط1، دار لاشروق، الأردن-عمان، 2003م.
18- النقر مُحَمَّد، تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي، ط2، دار البداية، الأردن، 1426هـ، 2006م.
19- الوقاد مُحَمَّد، اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجنيزة، الهيئة العامة للكتاب، (د-ب)، 1999م.

قائمة المراجع الأجنبية:

1- تاجر جاك، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام 1922م، مؤسسة الهنداوي، القاهرة، 2012م.
2- حاسون جاك، تاريخ يهود النيل، ترجمة: يوسف درويش، ط1-2، دار الشروق، القاهرة، 2007-2008م.
3- كوهين مارك، بين الهلال والصليب وشع اليهود في القرون الوسطى، ترجمة: اسلام ديه معز الخلفاوي، ط1 منشورات الجمل، بغداد، 2007م.
4- هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة: أحمد رضا، مراجعة، عز الدين فؤاده، ج1 الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م.

الرسائل الجامعية:

1- بكير مروان، المدينة الفلسطينية في عهد المماليك، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية الدراسات العليا للتاريخ العربي الاسلامي، بيروت، 2004م-2005م.
2- تحسين ميساء، صورة اليهود في شعر العصر المملوكي الأول، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية، كلية الدراسات العليا، نابلس، 2013.
3- حجازي فايزة، أهل الذمة في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، جامعة اليرموك، 1987م.
4- حسن بليلة، العلاقات بين المماليك وايلخانات مغول فارس وأثرها على مصر وبلاد الشام، (648هـ-741هـ/1250م-1341م)، مذكرة لنيل شهادة دوكتوراه، فلسفة التاريخ، جامعة الشندي، السودان، (1440هـ/2018م).
5- ذياب سميرة، صورة المجتمع الشامي في الدولة المملوكية الأولى، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب واللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، 2007م.
6- غانم زياد، المعجم الجامع التاء والدال، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية الأدب، جامعة النجاح، نابلس 2001م.
7- نافع ليلى، الحياة الثقافية في مصر في العهد المملوكي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الاسلامي، كلية الأدب، جامعة مصراته، لبنان، 2013م-2014م.

المجلات:

1- فاضل اسراء، (أهل الذمة واسهاماتهم الطبية في دولة المماليك)، مجلة كلية التربية للعلوم التربوية والانسانية، العدد: 43، جامعة بابل، 2019م.

2- النهار عمار، (دور أهل الذمة والجاليات الغربية ونشاطهم في عصر المماليك) مجلة الدراسات التاريخية، العددان: 125-126، كانون الثاني-حزيران، 2014م.

قائمة المصادر والمراجع للغات الأجنبية:

1- *By Aziz Souryal Atiya, Egypt And* AR *Agon Embassies and Diploumatic correspndence between* 1300 *and* 1330 A-D*, Kommission sverlag*-F-A *Brockhaus LEIPZIG*, 1938, P 48.

الفهرس

	الشخصيـــــات	الصفحـــة
الفصل التمهيدي	- السامري.	11
الفصـــــل الأول	/	/
الفصـــــل الثاني	- الأمير يشبك.	35
الفصـــل الثالث	- ابن المغربي.	57

	المصطلح	الصفحـــة
الفصل التمهيدي	- تلموذ.	10
	- ناسوت.	12
	- اللاهوت.	12
	- الأب.	12
	- البطاركة.	12
	- الزنار.	14
	- الصيرفة.	14
الفصـــل الأول	- نظر.	19
	- بطرك.	19
	- كاتب السر.	20
	- الترجمان.	21
	- الجاشنكير.	22
	- القمامة.	22
	- الجوالي.	23
	- الحاشر.	24
	البطريريك.	26
الفصـــل الثاني	- القزازين.	37
	- الحياكين.	37
	- الصباغة.	38
	- الخبازين.	38
	- الفرانين.	38
	- الدباغة.	38
	- الكرخانة.	39
الفصـــل الثالث	- المكاتب.	53
	- رهبان الفرنسيكان.	54
	- البيمارستانات.	57

	المكان (البلد)	الصفحـــة
الفصل التمهيدي	/	/
الفصـــــل الأول	- الكرك. - الشوبك.	23 23
الفصـــــل الثاني	- الخليل.	34
الفصـــل الثالث	- سيس.	49

فهرس

المحتويات

المـــــــحـتـــــــــــوى	الرقم
الاهداء	
الشكر	
المقدمة	أ
الفصل التمهيدي: أصل التسمية ولمحة تاريخية	
المبحث الأول: تعريف أهل الذمة.	07
- لغة.	07
- إصطلاحًا.	08
المبحث الثاني: طوائف أهل الذمة.	09
- طائفة اليهود.	09
- طائفة النصارى.	11
المبحث الثالث: لمحة تاريخية عن أهل الذمة قبل عهد المماليك.	13
- عهد عمر ابن الخطاب والعهد الأموي.	13
- العهد العباسي والدولة الطولونية.	14
- الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية.	15
الفصل الأول: الدور السياسي والدبلوماسي لأهل الذمة في الدولة	
المبحث الأول: تأثير أهل الذمة على السلطة.	19
- الوظائف الادارية.	19
- الامتيازات.	22
المبحث الثاني: الغرامات المالية المترتبة على أهل الذمة.	23
- الجزية (الجوالي).	23
- الضرائب الأخرى.	24
المبحث الثالث: العلاقات الخارجية لأهل الذمة.	26
- مع ملوك بزنطة.	26
- مع ملوك الحبشة.	27
- مع ملوك أوروبا.	28

- مع ملوك المغول والصليبيين. 29

الفصل الثاني: اسهامات أهل الذمة في المجال الاقتصادي

المبحث الأول: الزراعة. 33

- الزراعة عند اليهود. 33

-الزراعة عند النصارى. 34

المبحث الثاني: الصناعة. 36

- الصناعة عند اليهود. 36

- الصناعة عند النصارى. 38

المبحث الثالث: التجارة. 39

- التجارة الداخلية. 39

- التجارة الخارجية. 41

الفصل الثالث: تأثير أهل الذمة على المجال الاجتماعي والعلمي والثقافي

المبحث الأول: المجال الاجتماعي. 46

- الاستقبالات السياسية والعادات والتقاليد. 46

- الأعياد والاحتفالات. 47

- الأعمال التخريبية. 48

المبحث الثاني: المجال العلمي والثقافي. 50

- حركة الترجمة. 51

- المؤسسات العلمية(المدارس والمكاتب). 53

- الطب والأطباء. 55

الخاتمة 59

ملاحق 61

قائمة المصادر والمراجع 63

فهرس الشخصيات 69

فهرس المصطلحات 70

فهرس الأماكن والبلدان 71

الملخص

تناولت هذه الدراسة دور أهل الذمة في مصر والشام خلال العصر المملوكي (648هـ-923هـ/1250م-1517م) تعد من الدراسات الهامه التي تكشف النقاب عن حياة اليهود في اواسط المجتمع الاسلامي والهدف من هذه الدراسة والوصول إلى حقائق تاريخية توحي بأفكار لها علاقة بموضوع أهل الذمة الذين انتهزوا فرصة تقربهم من السلاطين من خلال وصولهم إلى أهم وأعلى الوظائف الادارية كوظيفة الوزير وكاتب السر والترجمان ومرشد الحجاج والسفراء وغيرها من المناصب كما تمتعو داخل الدولة المملوكية بحقوق وحريات تكاد تكون كحقوق وحريات المسلمين كحرية اقامة شعائرهم الدينية ومنحت لهم امتيازات عديدة من طرف السلاطين الذين التزموا بقواعد الشريعة الاسلامية في منح الأمان لهم وأخذ الجزية منهم ضف إلى هذا كله أنها لم تنقطع عنهم التوصيات سواء من سلاطين الدولة إلى رؤساء الطوائف أو من ملوك الدول كالدولة البيزنطيه والأحباش وملوك أوروبا وغيرهم.

مارس اليهود والنصارى كل أنواع النشاطات الاقتصادية في مجال الزراعه الذي يعد أول عناصر الاقتصاد، ومن خلال أماكن سكنهم عرفنا مدى اهتمامهم بعمليات التشجير من كروم وزيتون وأنواع أخرى، وانشاء بساتين خاصة بالخضر والحبوب كالقمح والشعير وغيرها، بينما مجال الصناعات ظهر منهم الصباغون والدباغون والصياغون والنساجون والحياكون والخياطون انهم اشتهروا بصناعة المواد الغذائية كصناعة السكر وامتلاك بعض مطابخه وصناعة الحلوى، أما فيما يخص الجانب التجاري فقد كان اهتمامهم الكبير في كسب الأرباح وحب المنافسة فيما بينهم وكما امتلكوا عقارات خاصة بهم وراحوا في اتقان عمليات البيع والشراء وهذا فيما يخص التجارة الداخلية أما التجارة الخارجية فقد ساهموا في تطويرها إلا أنه لم يكن لهم حظ وفير فيها كغيرهم من المسلمين اذ كانوا يطردون في غالب الاوقات.

-كما اندمج اهل الذمة داخل المجتمع الاسلامي في كل مصر والشام وهذا يبدو لنا من خلال ممارسة شعائرهم وأعيادهم بكل طلاقة وحتى أن بعض سلاطين المماليك شاركوهم احتفالاتهم وتبادلو معهم الهدايا، ومن ناحية أخرى أثر أهل الذمة على المسلمين من خلال بعض مظاهر حياتهم

اليومية كالعادات والتقاليد، ومع هذا لم يجدوا عوائق تقف أمام انسجامهم مع المجتمع المصري والشامي وهذا يعود لحسن جوار المسلمين والتسامح الديني معهم، إلا أن فئة من اليهود والنصارى قاموا بأعمال تخريبية كحرق المؤسسات العلمية والمتاجر الخاصة بالمسلمين وحتى المساجد وهذا أثار في نفوس المسلمين والسلاطين فعاقبوهم وفرضوا عليهم ضرائب مقابل دفع ما خربوه.

-شهدت الساحة الثقافية بعض من اليهود والنصارى وعثر على أسماء كثيرة لمفكرين ومترجمين ساهموا في النهضة وأطباء في النهضة العلمية لدولة المماليك وكما ركزوا على بناء المنشآت العلمية التي تفيدهم في تلقي العلم والمعرفة كالمدارس والكتاتيب وغيرها.